بيت الطين

وحكايات أخرى

الساهي إبراهيم

دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

بيت الطين

وحكايات أخرى

الساهي إبراهيم

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

ذهاب للفهرست

العنوان: بيت الطين

النوع الأدبي: حكايات

المؤلف: الساهي ابراهيم

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

بيت الطين

وقَّع أبو عبد الله في المكان المخصص تحت اسمه ثم تبارى الحاضرون بعبارات التهنئة والمباركة لكل من البائع والمشتري، وأعتدل بعدها في جلوسه السمسار وصاحب مكتب العقار سويلم وكنيته أبو إبراهيم وكان يبتسم لهما أيضا بينما ينتزع صور العقد الخاصة بكل منهما وبعد بها اليهما للتوقيع وأخيرا سلم لكل طرف عقده الخاص به وهو يقول:

- مبروك، مبروك يا بوعبد الله البيت، يعوض عليك بالبركة يا بو حماد، والحق كلكم طيبين وتستأهلون وأنا بعد أستأهل أخصم نسبتي من المبلغ ..

قالها وهو يفتعل قهقهة باهته وقد ركز بصره وجميع حواسه في رزم أوراق النقود المكدسة في الحقيبة أمامه ويداه تقتطع منها رزما مفردة وترصفها جانبا على مكتبه، وما أن انتهى من بناء حصته حتى استكمل فجأة بقايا القهقهة التي نسي أمرها لفترة ورفع رأسه اليهما باهتمام ليبلغهما بما تبقى من الأمور المتعلقة بإجراءات المبايعة:

- طيب! هذي فلوسك يا بو حمّاد تقدر تستلمها وتعدها، أما أنت يا أبو عبد الله فموعدي معك إن شاء الله بكرة، حتى أكمل لك تسجيل المبايعة والإفراغ للصك باسمك بموجب التوكيل، وما يحتاج تستلم مني أي مفتاح فالباب على ما يقول المثل: الباب على كراعه ..

انهالت من جديد بعض أصوات الجمع بالتهاني في وقت انشغل فيه الوسيط السمسار بوضع حصته في الخزنة وأندمج أبو حماد في العدّ والتدقيق لنقود الحقيبة وأنهمك آخرون بالحملقة وبتركيز شديد في كل ورقة نقدية تضمنتها الرزم التي يتفحص أبو حماد ومؤكد سبقوه في عد المبلغ مرات ومرات قبل أن ينتهي من عدها، أما المشتري أبو عبد الله فأنفرد وحيدا في صراع جانبي لفك رموز الخط الذي كتب فيه صك تملك البيت القديم وكان فيما يبدو كتب بيراع من القصب أو بقلم من ريش النعام وكانت الأحبار باهتة مع الزمن، ومع هذا عرف بأن بين يديه وثيقة حقيقية أمتلك بها بيتا قديما من الطين أو اللبن ولكن مساحته كبيرة جدا، ويقع في القرية القديمة التي هجرها الناس وانتقلوا عنها إلى مسافة ومساحة جيدة لينشئوا مدنية جديدة بأحياء ومباني وشوارع حضارية بعد أن انتشلتهم طفرة مفاجئة للاقتصاد وبفورة من الازدهار بعد معاناتهم لسنوات من جفاف الآبار والكساد الذي تفشى في البلدة واستحال العيش فيها وظلت أطلالها تلوح لهم من بعد بذكريات الماضي، ولهذا احتفظوا بها مع عدم إمكانية الاستفادة منها ولكن ذكاء وطموح أبو عبد الله جعله يتنبأ بمستقبل باهر لهذه الرقعة في يوم قريب، وسيكسب الملايين أمام عشرات آلاف دفعها اليوم ولا يتبقى سوى انتظار لن يطول لقدوم الثروة والغنى، وكاد في جلوسه مع الصك أن يوقع في مخيلته عقد البيع الجديد ويقبض عدة ملايين لولا أن أفسد هذه المبايعة صوت السمسار أبو إبراهيم وهو يذكره بموعد الغد في مجلس كتابة العدل. خرج أبو عبد الله من المكتب العقاري تحمله أجنحة الفرح والبهجة

حاملا في حقيبته ورقتين خفيفتين فقط بعد أن كانت مثقلة بالنقود التي مرت به سنوات من الجهد والكفاح والتقتير حتى تمكن من ملئها ليفرغها وفي دقائق معدودات على مكتب السمسار، أمتعض من بزوغ هذه الفكرة التي اقتحمته وقبل أن يغوص بآلام الندم تذكر أنه سيملأها عن قريب مرارا بأضعاف ما كانت حملته اليوم من الرزم النقدية، بل سيحتاج غدا إلى عدد من مثلها أو لحقائب أكبر من حجمها وهنا تبدلت سحنته لهذه الفكرة وانفرجت أساريره التي هتفت لها نفسه: مرحى بالملايين!

نظر إلى ساعته (أم الصليب) والتي بلا شك كانت أثمن شيء له قيمة ورثه عن والدِه وأتجه إلى سيارته الشاحنة الصغيرة القديمة من نوع (الوانيت) ولكنها جيدة على أي حال فهو يعطيها الكثير من الحب والعناية لما تقدمه له من مكاسب خارج أوقات الدوام بنقل الأشخاص والأغراض داخل المدينة أو ضواحيها وكانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف مساء وشعر بإن الوقت مازال مبكرا حتى الغروب أمام رغبة في نفسه تلح على رؤية المنجم الذي دفع فيه للتو محصلة خمس وعشرين سنة.

نعم، سيتوجه نحوها منذ الساعة ويدخل في الحي القديم ويسير على هذه الأرض ولكن كصاحب أملاك، ولن يفوت على نفسه المتعة بهذا الإحساس ولن يفرط بشيء منه من أول لحظة، فأوصد أبواب ذهنه تماما من أن تغزوه أي خواطر أو أفكار أخرى عدا هذا، وأدار محرك السيارة وكأنما شحنها ببرنامج السير إلكترونيا ونحو الهدف لا غير انطلقت به بسرعة رهيبة وهولا يدري إن

تجاوز أو خالف نظم السير، لأنه بالفعل يسبح في محيط بعيد يطفو بحقائب ممتلئة بأوراق البنكنوت والقوارب تُحمَّل منها وتنزّل الملايين و..!

تخطى طوق العمراني للمدينة الجديدة والوانيت يلتهم المسافة وهي مساحة كبيرة من الحفر ومقالب النفايات ومقابر للسيارات إلى جانب مقابر قديمة لبني الإنسان قبل الدخول في القرية القديمة ولابد أن يكسب فيها المزيد من الوقت، ولاح له من بعد عدد من العشاش المتناثرة وتعتبر نوعية من أكواخ تبنى بعشوائية وبخليط من خشب وصفيح ومسقوفة بجريد النخل مع رقاع من أشرعة صوفية وأقمشة ويسكنها أشد الناس فقرا ومن يجدون في النفايات بعض المنافع، وحين أقترب من أحد هذه العشاش شاهد حولها طفلا وربما الآخر طفلة وقد توقفا عن الركض نحوه لينظرا إليه أو ينتظران كانا منه شيئا كصدقة أو معونة، وكانا يرتديان ما يشبه السراويل القصيرة وقد ذهبت ألوانها مع ألوانهما في لون واحد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، وخطر له أن لون الطفلين أيضا ليس بالحقيقي مما جعله يهتف ساخرا وعلى وجهه تعابير بالقرف والاشمئزاز من منظريهما:

- **والله من الوصخ!**

أنطلق يقهقه في شماته وشق طريقه ولم يجد صعوبة في الوصول إلى البيت فقد كان هنا أيضا هذا الصباح مع السمسار ووصلا إليه بعد عبورهم للكثير من الأزقة المتعرجة وبين أسوار طينية طويلة كانت لمزارع وبساتين وبيوت لها عظيم الشأن في غابر الأزمان وأخيرا ينتهي به الطريق إلى ما يشبه الشارع الواسع ولكن

نهايتيه تسدهما بقايا من جدران مزارع ومباني متهدمة ليصبح كل المكان ساحة مستطيلة طول أحد ضلعيها هو كامل امتداد السور الغربي للبيت الذي اشتراه المليونير القادم، وفي الحقيقة إن البيت لا يحتل سوى حيزا يوازي أقل من ثلث طول السور ويقع في زاوية على الطرف المواجه للمدخل الوحيد لهذه الساحة أما ما يتبقى خلف السور حتى نهايته في الطرف الجنوبي ومع ما يمتد في العمق شرقا فمساحة هائلة من أحواش مجزأة تبقت منها جدران قصيرة تدل بشكل واضح على أن مالكيه حولوا هذا البستان الكبير في أيام تالية إلى أحواش لإيواء المواشي أو تربيتها.

توقف أبو عبد الله بشاحنته الصغيرة الوانيت بجوار أملاكه وأمام بوابة البيت مباشرة وشاهد بوابة واسعة تبقى عليها نصف الباب الكبير المصنع من الخشب الثقيل، ونزل بخيلاء المالك المتباهي وفي عينيه وعلى شفتيه ابتسامة تطفر بالتفاخر والخيلاء، وجال بصره في فراغ الفجوة الواسعة التي كان يحصنها يوما المدخل الذي كان يليق حتما بالعائلة الوجيهة التي قطنت فيه ربما قرون، وتنبه لينظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الخامسة وثلاثين دقيقة، فزاد من سرعة خطواته ليتجاوز المدخل الخارجي المتصل بممر واسع ومسقوف يمرق تحت الطبقة العلوية للبيت الكبير ليملأ عينيه بما لم يسعفه الوقت لمشاهدة ساحة الأحواش الداخلية الواسعة وقبل أن تستفحل حوله الظلمة، فتلك النظرة هي وقود لخيالاته وأحلام ليلته السعيدة التي سيحتفل بها في غرفته وعلى فراشه وعلى طريقته كليلة عمر في تاريخ حياته، ومن يدري قد تطول حتى الصباح.

تخطى شبكة من الممرات داخل البيت حت وصل إلى الباب الذي سيفضي به إلى الأحواش، فهتف بما لم يكن يجرؤ على البوح به أمام السمسار في زيارته هذا الصباح:

- آوه! هذي المساحة وألا بلاش .. الله! حتى أبواب الجانب المقابل مفتوحة على فضاء .. يعني شارع، يعني ذهب! فلوس .. ملايين.

وأخذ ينقل بصره في كل اتجاه، فيصل به إلى أقصى طرف السور يمينا ويرتد به يسارا وطولا وعرضا وإذا به يغيب في أحلام وردية لذيذة وأحتفل فيها قبل موعد الافتتاح كما خطط له في غرفته قبل النوم، ومر به وقت طويل حتى تنبه فجأة من أحلامه، وأرتج بفزع ورعب من الظلام الدامس المحيط به إلا من أضواء النجوم في قبة السماء الحالكة.

ألتفت يمينا وشمالا وبأطراف عينيه وهو في الحقيقة قد ألغى أي دور للشبكية أو فاصلا اتصالها بمراكز الأعصاب والمخ، وراح يبسمل وحوقل وهو آخذ بالانسحاب من حيث أتى راجيا الله ألا يسمع أو يظهر له في طريقه ما يحطم قوة جدران دفاعاته النفسية الهشة ويحدث ما لا يحمد عقباه، تفاجأ بجمة هذه الأحاسيس التي لم يسبق أن أختبرها في نفسه يوما وشعر بأنها نابعة عن مخاوف حقيقية تحيط به مما صعدها ولكنه يأمل بصورة ما بأنها ستزول بمجرد خروجه من ظلمة البيت، وأخيرا تنفس ملء رئتيه وظل يحمد الله وهو يفتح باب السيارة ويدس جسمه فيها مظهرا تماسكه وبالكاد أستطاع وضع المفتاح وأن يدير المحرك حيث فقد السيطرة على حركة يديه تماما ولكن السيارة لم تشتغل،

فاستعاذ بالله من الشيطان وبسمل وأعاد التشغيل لعله نسي أول مرة أن يسمي بالله ثم تعوذ بالله وأعاد الكرة ولم تستجب، ثم بسمل وأستعاذ وحوقل وأعاد ولكن المحرك أصر على العصيان ولم يستجب ولم يبد أي استعداد للتعاون فتساءل:

- وش الأمر؟ وقفت والسيارة بكامل عافيتها!

وأنا قد مليتها بالبنزين حتى ترغت من التخمة؟ لكن!

وش ريحة البنزين؟ يمكن شرَّق الكلبريتر.

وبعبارته المعتادة في أي موقف:

– والله البلشة!

يعني لازم أنزل! أنا ما صدقت على الله أركب!

والله البلشة!

عاد يستجمع ثقته ويشجع نفسه فالأمر حتمي، وهو لن يبقى في السيارة وفي هذا المكان حتى الصباح، فقام بفتح باب السيارة وفوجئ برائحة وقود البنزين تندفع إليه من الخارج بقوة والتي لم يلاحظها عندما ركب وبدون شك من شدة الخوف وهتف بصوت عال ليبعد هذا الحس المزعج:

- مشرقة بالنزين!؟

والله البلشـة!

وجد في هذا التوجه ما يشغله ويخرجه من مخاوفه لفترة، فأدار المفتاح ليتأكد من عداد البنزين فوجده يشير تماما على (الصفر) !

بُهت! نزل في غضب شديد وراح ينظر إلى سيارته بحنق ويكيل اللعنات، فالأمر لا يصدق!

هو متأكد من تعبئة خزانها حتى تجشأ ممتلئا، وحين نظر بالصدفة تحت قدميه فإذا ببقعة كبيرة داكنة اللون امتدت من تحت سيارته وانتشرت على الأرض، حركها بقدميه وبدت جافة، فانحنى ليتأكد من ملمسها وملأ كفه بحفنة من التراب وأدناها من أنفه ليطلق صوته عاليا باللعنات المتوالية وصمت عندما خطرت قطعة من حديد كانت فاجأته وداستها عجلات السيارة بعدما زاد من سرعة السيارة ليوقف ركض الطفلين نحوه بأمتار قليلة وتجاوزهما ساخرا.

كما تذكر الآن أن الطفلين هما آخر من رآهم من البشر في كل الطريق حتى بلغ هذا المكان، وهذا يعني أنه فعلا في مكان معزول!

فأخذ يفكر بصوت مسموع يجعله في أجواء بعيدة عن الهواجس التي لا يريد لها أن تطغى على تفكيره:

- **طيب! أنا خرجت من وسط الديرة في هذا الاتجاه غربا**
  وأكيد طريق السيارة أبعد! لكن لو مشيت للشرق
  وقطعت المزارع فالمسلفة أقرب!

وتوقف عن الفكرة:

- **لكن طريق السيارة أضمن من المشي في طرق مجهولة أو ألقى الطرق مسدودة واحتمال أضيع والا أهلك بين المزارع**

ويبدو أنه استنتج الحل المناسب:

- الحل أن أتوكل على الله وأمشي في الطريق اللي أعرفها، ولو استطعت الاختصار فالخير والبركة ..

أنطلق أبو عبد الله متتبعا ما يراه من أثار سيارته كان لشدة أضواء المدينة ما أعطي السماء وهجا ينعكس بضوء باهت لأبأس به على الأرض ودون أن يعطي للأشياء أي ظلال.

لقد طوّع قدراته بشكل فريد على عزل بؤرة حواسه عن محيطه الحقيقي إلى محيط أضيق خاص به، فلا يسمع إلا صوت خطواته والأصوات الداخلية في نفسه، ثم تمكن من تكييف حواس بصره وأنفه وبقية الحواس لتفند أي شعور داخلي بالتعب والعطش والجوع أو ما يغزوها من الخارج في أصوات وشكوك وهو يمرق من زقاق إلى آخر ودون أن يتجاسر على النظر في الأزقة الجانبية أو المتفرعة عدا الاتجاه المحدد أماما وبلا تمحص.

واصل السير في زقاق عميق وهو يأمل بأنه قد قطع نصف المسافة في القرية وهم بتجاوز زقاق جانبي على يساره دون النظر فيه إلا أنه لمح بزاوية عينه ضوء ولم يشكك برؤيته مما جعله يخمن أنه ضوء حقيقي صادر عن لمبة صغيرة، ربما هي على باب منزل أو ضوء لسراج في نافذة ولعلها من دكان صغير.

كان صمم في البدء على المواصلة لولا أن قرصات الجوع والعطش والمخاوف الدفينة لها الرأي الأقوى والصوت الذي رأى الاحتمال المحقق بالحصول على أي نوع من المساعدة على تجاوز المحنة والمخاطر في دكان أو منزل أو أي

كان يمكنه أن يقدم له العون ويمكنه من قطع المسافة الطويلة المتبقية بأمان حتى وان كانت بنصيحة بأقرب الطرق وأسهلها وأسلمها للسير والوصول وكل هذه الأفكار دارت سريعا في بضع الخطوات التي تجاوز بها زاوية الزقاق الأخرى فأرتد على عاقبيه ببطء ملتفتا بحذر إلى حيث لمح الضوء ليتأكد من صدق تخمينه كانت سبع خطوات أو أقل كافية ليقف ويرى وبتأكيد أن هناك ضوء حقيقي يصدر فعلا من محل صغير غير بعيد على الجهة اليسرى من الزقاق، لتصدر عنه شهقة فرح بالحمد والثناء لله.

مشى كالهرولة بينما يتفحص صف صناديق خارج المحل وبعض البراميل التي أكدت صدق حدسه بأنه مقبل على دكان للبقالة، فملأ رئتيه بالهواء بعمق وزفر والبهجة تعلو وجهه بابتسامة عريضة وهز رأسه في سخرية من نفسه واستسلامها لعواصف الرعب وذل المخاوف التي سيطرت عليه طوال الساعات الماضية.

تقدم بخطى واثقة مطمئنة إلى الدكان وهو (يتنحنح) ليعلن عن قادم وتوقف أمام الدكان فوجد في عمق الدكان كهلا يقتعد صندوق شاي كبير وأمامه صندوق آخر ابتسم حين شاهد فوقه صحن مستدير يتوسط منه إبريق مسود صغير وبجانبه كاس مملوءة بالشاي وأخرى فارغة وهذا ما أطال فيه النظر وهو ينجذب كالمسحور حتى وقف داخل الدكان وقد نسي إلقاء التحية على الرجل الذي ابتسم وهو يبادره قائلا:

- هلا بالضيف! حياك، حياك، أقدم وتقهو، الظاهر إنك خرمان شاهي..وأكيد انك بعد جيعان وعطشان

أستبشر أبو عبد الله خيرا بما سمع وتقدم بخطى فيها شيء من التباهي، فلابد أن يعلم هذا الكهل أولا بأنه من أهل الأملاك هنا وينتظر واجبا أو خدمة أفضل سيطلبها لاحقا، ولكن بعد أن يتناول أولا فنجالا من هذا الشاي الساخن، فرائحته المنتشرة والزكية في أنفه تسلب منه الآن كل الرغبات وكل إرادة، وأن فنجالا واحدا سيعطيه ما سلب من التركيز ويبعد عنه أي إحساس بالعطش والجوع ولو مؤقتا حتى يتقدم بطلباته للكهل، وولج إلى داخل الدكان الصغير وتنبه لوجود صندوق آخر موضوع أمام الكهل مباشرة ويفصل بينهما الصندوق الذي وضع فوقه الإبريق، وراح أبو عبدالله يأخذ وضعه للجلوس وقد أظهر ميدالية مفاتيح السيارة كرسالة سريعة لها معناها، وطاف ببصره في رفوف الدكان وما حزت من بضائع لتغمره الدهشة وتبزغ عيناه من شدة التعجب، فليس هناك أي بضاعة حقيقية فيما يراه على الرفوف المتهالكة سوى عدد من العلب بالكاد تتجاوز أصابع الكفين توزعت في أماكن متباعدة والمثير أن جميعها بدون أي ملصقات أو ألوان ورسوم تحمل أي علامات أو أسماء تدل عليها وما تحويه وبينها عدد من الصناديق والعلب والجرار التي تغطيها طبقات من الغبار، ولم يكن أبو عبد الله يخفى ابتساماته وتعابير السخرية بفمه وحركات الاستهزاء برأسه كلما وقع بصره على واحدة من هذه البضاعة العجيبة إلا أنه غمغم بخفوت وهو يجيب على ما خطر من تساؤل:

- يعني ايش تبغاني أتوقع من أحمق أن يبيع في هذا المكان المهجور؟

إلا مثل هذه البضاعة المصدية والمتعفنة.

وكان الكهل يتفحص وجه ضيفه بنظرات بريئة ختمها بقوله مبتسما:

- **اشرب شـاهي يا ضيف! ضيِّف نفسك! وأعذرني لو ما صبيت لك أنا بسبب رعشـة يديني القوية ..**

ثم أكمل ضاحكا وصوته الخافت الأجش يفيض بالحلم والرقة:

- **لو صبيت لك ما وصلت نقطة وحدة بالفنجال ..**

هيا! لا تستحي يا ولـدي صب لنفسك، ولو انك ها الحين من أعيان هذا المكان، وما صرت غريب ..

شعر الضيف بالفخر لهذ الإطراء الغير متوقع والذي لم يجعله يلحظ بأن صك التملك مازال في جيبه ولم يسجل بعد باسمه رسميا، وان فضل أن يعزو هذه المفارقة إلى الحصافة التي يتمتع بها الجيل القديم ولم يهتم كثيرا بل مد يده في لهفة المشتاق إلى الإبريق ليسكب منه بعض الشاي فإذا به يرفع ابريقا بلا أي وزن إطلاقا!

فقام برجّ الإبريق بحركة خفيفة ليتأكد وأتبعها ابتسامة عريضة متهكمة وهو بنظر للكهل وقال بسخرية:

- **الإبريق فاضي يا عم!**

ليجيب الكهل بدهشة:

- **لا، لا ما يصير أبـدا! أنا توّي مليته!**

صب، ولا يهمك تراه مليان شاهي! صب يا رجال وتقهو.

فأراد أن يثبت للكهل بالغ سذاجته وقلة عقله فرفع الإبريق العديم الوزن عاليا وأمال فم الإبريق إلى الكأس فإذا بالشاي ينصب ساخنا والبخار يتصاعد منهما بكثافة!

أصابت أبو عبد الله دهشة عارمة ولكنه سارع بفرض السيطرة على أعصابه لإدراكه بحدوث شيء لم يفهمه وتوقع بأن الأمر بسيط ولا يحتاج للقلق بالبحث عن أي تفسير وعليه ألا يفكر عميقا واعتبرها خطوط حمراء يجب ينجرف فيها وما يلمح به عقله الباطن مهما كان الأمر. واكتفى بأن هذا يرجع ببساطة إلى قوة عضلاته وصغر حجم الإبريق وقد أعتاد على حمل الأباريق الضخمة في بيته فأحس بشيء من الراحة لهذا لتبرير وضحك معتذرا للكهل على ذلك اللبس الذي صدر عنه، وأسرع بلهفة لحمل وإفراغ ما في الفنجان في حلقه ولكن مازالت تتصاعد منه الأبخرة بكثافة فأراد أن يضعه جانبا حتى يبرد قليلا وان على مضض ولكن الكهل أخذ يشجعه عليه بالشرب:

- اشرب، اشرب يا شيخ انت خرمان، بلّ ريقك شويه، خذ رشفة على الأقل!

وتوجهت يده بالفنجان إلى فمه مع أبخرته الكثيفة للتلذذ بتلك الرشفة الحلم والتي يهون في سبيلها تلقي اللسعات المحترقة مهما بلغت شدتها وإذا بعيني أبو عبد الله تجحظان وبضعفي استدارتهما وهو يرشف أول رشفة وسارع يتبعها بأخرى ليتأكد فأخرى حتى امتلأ فمه بالشاي الذي لم يبتلعه ثم انتفضت يده ومج بكل ما دخل فمه جانبا على الأرض وبوجه عابس:

- أخ! وايش هذا الشاهي؟ شاهيك ماسخ وثالج؟

وتقول توّك مسويه؟

وازداد جحوظ عيني:

- وبعدين وايش هالدخنه اللي بالفنجال؟ اللي كنها مدخنة مصنع؟ و..

وأحس بدوي جرس الإنذار الداخلي ليعود سريعا إلى حصون فكرته بتطبيق دروع المقاومة وان بقلب الوقائع والظواهر واستخدام التبريرات اللا منطقية التي ستجعل من الوقائع منطقية رغما عن أنفه وأنف كل القوانين والحقائق. حتى لو وضع يده في موقد للجمر فيجب أن يبتسم ويقول ما ألذ هذا التمر الناضج، والشرط ألا تصل أفكاره إلى تلك النقطة المحذورة الواقعة وراء الباب الذي وضع كل قدراته العقلية سدا وترسا لمنع وصول المخاوف والأفكار المرعبة الى بؤرة الشعور ولا حتى بمجرد التلميح بوجود شيء منها، وفي زحمة هذه المواجهات سمع الحل المناسب لتفسير الواقعة في الكلمات التي يرسلها اليه وكانت قشة النجاة التي سيتمسك بها ليعزز صموده ووقفته لمواجهة سحب البخار المتصاعدة من فنجان الشاي المثلج:

- الظاهر إن التعب والعطش والجوع أثر عليك يا ولدي! وصار شوفك شجر، لكن! لا يهمك يا الضيف فالعشاء صار زاهب، والربع يتحروننا نقلط ..

ونهض الكهل وأكمل كلامه بابتسامة ونظرات غامضة تسترت خلف صوته الرقيق:

- **وبعد العشاء كل الأمور بتنصلح، وما يصير خاطرك إلا طيب، هيا! تفضل يا ضيف ..**

تساءل أبو عبد الله عفويا ولكنه لم يرغب بأن تنطلق أفكاره في أبعاد سؤاله:

- **وين أتفضل يا عم؟**

وجاء صوت الكهل الهادئ والمصاحب للنظرات عميقة وابتسامة ممتلئة بالغرابة:

- **تفضل عند الجماعة! داخل البيت!**

ما تشم العشاء؟

وما زاد تمسكه بالقشة التي قذف بها الكهل اليه إلا رائحة الطبخ والشواء تندفع من ناحية ما في صدر الدكان الذي خلا من الرفوف ولا يرى أمامه سوى جدار من الطين، عار ولا يرى فيه أو عليه أي نوافذ أو أبواب؟

وأصر بأفكاره مع مقاومة عواصف الشك على وجود ذلك الباب الذي تدخل منه الروائح التي لا تقاوم وحتما هو في مكان ما من الدكان، وجزم حين رأى الكهل ينهض مرحبا به كضيف عزيز، وأخذ بيد أبو عبد الله وسارا جنبا إلى جنب حتى قاربا نهاية الدكان والكهل ما زال يطلق عبارات الترحيب ويدفع بالضيف أمامه للمقدمة حتى التصق أبو عبد الله بالجدار!

ولكنه تأكد بأنه يشاهد الكهل ينفذ متخللا الجدار ومازال يسمع صدى صوته يردد:

- **يا هلا ويا مرحبا بضيفنا أبو عبدالله ..**

يا هلا .. يا هلا ...

وتنبه لمشاعره بأنه أصبح وحيدا وأن المكان حالك مظلمة وأرضه وجدرانه جرداء تماما، فأستدار برعبه الى الخلف ليرى في الجانب الآخر الظلمة وفي نهايتها فضاء معتم يفتح الى زقاق تغشاه الظلمة أيضا، وانه ينظر اليه من خلال فتحة لباب صغير تماسكت على جانب من حالقه بقايا أخشابه وتساقط ما أنخلع عنها على الرض حول المدخل.

ولا يعرف إن كان في تلك اللحظة يعي أو يتذكر بأنه نفس باب الدكان الذي كان دخل منه وكان مفتوحا وسليما ويلقي بالضوء الذي جاء به إلى هذه الحجرة المرعبة والزقاق المظلم.

بعد هذه الحادثة وفي السنوات اللاحقة أصبح يشاهد كثير من الناس شخصا كان يسمى أبو عبد الله وهو يطوف بين الخردوات وأكوام مقالب النفايات في المساحة بين القرية القديمة المهجورة ويرى غالبا عند الظهيرة وبعدها بينما يجلس بملابس ممزقة وقد أسترسل شعر رأسه ولحيته، وفي ظلال عشته التي ربما بناها من أعمدة خشبية ركزها وجعل فوقها وبينها بعض الخيش وأمامه أكوام من الرمل وأخرى من الحجارة وهو يقوم بالعد المتواصل:

- **هذي مليون طعش** ريال **فرنسي .. وهذي طعش مليون**

عصمللي .. نحط وفوقها أقة فضة يصير ..

يصير .. خمسين مليون وعشرين ألف أقة .. بس

وين باقي ملاييني نهبوها؟ والا طارت؟

باعد ملاييني مره ثانية ...

******

مجرم بأثر رجعي

قبيل الغروب بلحظات، وشمس الأصيل تُلقي بآخر نظرات الوداع الذهبية على حارة (المهاويش) لتنام كعادتها بعد الغروب هانئة هادئة حتى صبح اليوم الجديد، في هذه الأثناء دخل على الضابط المناوب في مركز شرطة البلدة الوحيد" عمر دْهيِّس" وهو صبي في السادسة عشر نحيل الجسم وثوبه ومظهره يدل على أنه من الأسر ذات المستوى "معدمة" ومع هذا فهو معروف للضابط ولجميع أهل البلدة القليلة السكان والمساكن والتواصل بينهم دائم ولا تحده مسافة فمن يقطن في أحد أطرافها يعرف تمام المعرفة قاطني الطرف الآخر كجار وصيق للجار. ظل الصبي يبكي ويتوسل للضابط أن يسمح له برؤية أخيه " ناصر" لأمر هام ولو لدقيقة واحدة. وكانت مُنعت عن أخيه أي زيارات لفترة لم تحدد وان مر على وجوده ما يقارب ثلاثة أسابيع، وأشفق الضابط الآمر في تلك الفترة على الصبي ووافق بأن يرى أخيه طالما انتهت التحقيقات وتم التصديق على الاعترافات بعد انتزاعها منه وعرض على قاضي البلدة في صباح هذا اليوم وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا لارتكابه جريمة سرقة.

وفي الغد سيرحل إلى سجن المدينة الكبير، فالبلدة تنقصها هذه الميزة ولا تحتاج لهذه لخدمة إلا في قضايا محددة أو صغيرة.

أستدعى الضابط أحد الجنود وابلغه بالأوامر وكيفية التنفيذ، فأخذ الجندي الصبي إلى احد الغرف الفارغة التي تستخدم عادة للعزل أو الضيافة الخاصة المنفردة للمجرمين وطلب منه الانتظار داخلها حتى يحضر له أخيه.

الغرفة ضيقة معتمة كالحة شديدة القذارة وكريهة الرائحة، وانتشرت على جدرانها وفي كل مكان النقوش والصور والعبارات الغريبة وأسماء مضحكة كتبت باستخدام مختلف الأدوات والمواد أو حفرت بطرق غريبة وبشتى الوسائل كرسائل وأشعار وجمل تعبر عن معاناة ورموز وحروف وتواريخ وأرقام وعبارات ذكريات وتفاخر وأخرى تلميحات وشتائم محملة بالبذاءات وقد تراكبت مع الطمس وتراكمت من الأرضية حتى قرب السقف مع توالي الأيام بضيوفها. والغرفة ليس لها منفذ سوى باب المدخل الحديدي الأسود الثقيل وكوّة صغيرة للتهوية بأعلى أحد الجدران وبقرب السقف ويمكن أن ينفذ منها قط سمين لولا القضبان السميكة التي تتوسط منها، ويبدو أن عمر لم يشعر بوحشة المكان وقرفه ولا سوداويته فهو في حالة انهيار داخلي كامل، فإحساسه بالمكان وكيفية تواجده فيه شبه معدومة وقد ألقى بظهره ليستند على حائط بقرب المدخل وأنخرط في بكاء مرير ونشيج ولم يتنبه إلا على جلبة غلق الجندي لمزلاج باب الزنزانة وأخوه ناصر يقف أمامه بفرح وسعادة باللقاء الا أن ملامح عمر ونظراته تحمل قلقا وحيرة لا تناسب الموقف فأبتسم ناصر وأندفع مرحبا بأخيه وشجع هذا عمر للقفز نحو حضن أخيه وراح يكيل رأسه

ووجهه ويديه بالقبلات ولم يكن ليتوقف حتى امسك به ناصر بكتفيه وثبته ليخرج من عاصفة العواطف ونوبة البكاء وأخذ يداعبه بالابتسام مازحا:

- إيه! يا رجال؟ خليك رجل! طيب انت ايش خليت لأمك ولأخواتك البنات؟
المهم قول لي اش أخبارهم؟ طمنّي! جرى لأمي حاجة؟ قول لي: فيهم شيء؟

وجاهد عمر كي يسيطر على سلطة البكاء ودموعه فلم يستطع إذ أخذ يجيب بإشارات فهم منها ناصر أهم ما يريد معرفته من هذه الزيارة المقلقة وأسعده أن أمه وأخواته والجميع بخير وأن الأمر ليس سيئا كما جال بأفكاره فانفرجت أساريره وقال بنبرات هادئة:

- طيب! أشكرك على هذى الزيارة وهذا إذا ما كذبت علي وأخفيت عني شيء، يخليني أقول الله لا يسامحك.

دفن عمر همه الأعظم وحزنه ليبتسم ويبرهن على صدق كلامه وحالة والدته واخواته:

- والله العظيم كلهم طيبين والصحيح كلهم حزنانين من اللي جرى لك وأمي ما تركت السجادة تصلي وتدعي لك تكون برئ وتخرج لنا بسرعة و ..

فأزاحت إجابته الأثقال المريعة التي كانت جثمت فوق قلب ناصر منذ أسابيع:

- أحمدك يا رب! ذا الحين فرحتني بزيارتك و ...

توقف ناصر للحظة لترتيب الأولويات التي سيتحدث بها مع أخيه قبل ترحيله عن البلدة ثم لن يتمكن أحد من زيارته، وعاد يمسك بكتفي أخيه لأهمية ما سيقوله:

- على فكرة! أول حاجة سلم لي على أمي السلام الكثير وأخواني واحد، واحد، وهذي أمانة تبلغها

لأمي وهي تعرف صدقي معاها لو على قص رقبتي

وزاد بكاء عمر وأخرج ما يريد قوله مع البكاء:

– صادق يا أخويا .. وأنا مصدقك. والله مصدقك ..

والله انت بريء والله!

ولكن ناصر عاد يهز كتفيه بعنف حتى يتمكن من إبلاغه بما يريد هو قوله:

- خلي البكاء واسمعني! تقول لأمي إني أنا بخير، وأني بريء هذي المرة والله العلي العظيم هو اللي يعلم واللي ييظهر براءتي من هذه التهمة بالذات في يوم القيامة...

ثم أضاف وهو يبتسم وفي هدوء برغم أن صوته يمتلئ بالمرارة وهذا راجع لتسليمه بما يؤمن به، بأنه برئ وهذا قدر وعليه الصبر لإرادة الله:

- أنا صحيح سمعتي بين الناس زفت وطين، والكل

عارفني إني حرامي والحكومة سجلتني من قديم مجرم!

بسبب اني كنت سرقت مرات كثيرة من دكان

العدني حلويات وبسكوت وعلبة جبن أو تونه

وأخذت من الفرّان كم مرة كم قرص ..

وفي يوم العزّ أخطف تفاحة وإلا برتقالة من

عربيات البياعين ومن بسطات الحارات ..

وقول يمكن مرات فتّحت أقفاص دجاج وعلى كم

سيارة وآخذت المقسوم ..

ورفع كفه ملوحا بانتهاء الأمور:

- ومع الأيام صرت حرامي الحارة وفي الشرطة مجرم

البلدة، والوحيـد!

وهز رأسه بإحباط وحسرة:

– بس! أكثر من ثلاثة أرباع الجرائم اللي اتهموني

فيها في البلدة يشهد الله أني بريء منها لكن ..

بابتسامة ونظرات محملة بالحزن وباليأس:

– بس اش تقول لأهل بلدك، ولحظوظ أخوك ونحسه

وللنصيب اللي كلما صاح صايح لحقوا أخوك

وهو غافل، وبعدها

خذوه فغلوه!

واحنا جدارنا قصير وأنا أخوك! وحظك هو

نصيبك ..

وضرب على صدره بيده بعنف وشد القميص وكاد أن يمزقه ثم أكمل كلامه بثقة ورباطة جأش وهو يضغط على كل حرف متسائلا في نفي ورفض:

- لكن أنا؟ أنا ناصر؟ أهجم على بيوت؟

وبيوت من؟

بيوت الجيران؟

وبيقولوا سرقت ذهب؟ و .. وفلوس؟

ويعود لصرب صدره:

- أنا أسرقهم؟ ذهبهم وفلوسهم كمان؟ والله لو كنوز

الأرض مرمية قدامي، تحت رجولي وفي بيت

أي جار والله ما أمد يدي ولا أ لمسها لو كنت

أموت من الجوع!

وأمس يتهموني؟ وبسرقة بيت جيراني ؟

ثم:

- والله ما يسويها أخوك لو مشي عاري في الشارع!

لكن الله وحده هو اللي عالم وهو حسبي!

كان ناصر يقول ذلك وهو يعلم بثبوت الاتهام عليه ويعلم بأنه سيحكم وكالمعتاد أيضا، أما أخوه عمر فقد بلغ ذروة الانهيار وهو يسمع ذلك فجثا على ركبتيه رافعا يده وينظر نحو أخيه ووجنتاه تغتسل بالدموع وعيناه تورمتا محمرتان كأنما تنذران بالنزيف دما وقد أوشك دمعها على النضوب:

- ناصر! خلاص أرجوك كفاية، واسمعني يا
أخوي!
أرجوك اسمعني! أنا ما جيت إلا عشان تسمعني!

بدأت الدموع من جديد تنهمر بغزارة وصوته يخرج يتهدج بقوة إصراره وتصميمه على إيصال ما جاء به وبما يريد قوله:

- أنت صادق! والله إنك صادق، وأنا رايح أعرف
الناس انك بريء .. انت بريء!
وأنا الوحيد اللي
عنده الدليل بس! أرجوك سامحني يا أخويا ..

كان منخرطا في البكاء بانهيار تام وناصر يتابعه بوعي وانتباه شديد ولم يحاول إسكاته، فما يتكلم به مثير ويحمل الغموض وهو يتعلق بأخطر موقف في حياته كأول محكومية طويلة وخارج مركز البلدة، الا إذا أصاب أخيه شيء من الجنون بسبب هذه الحادثة وما يحمل قلبه من المحبة له، لذا تركه يسترسل:

- أنا تعبت خلاص يا أخويا، ومن شهر ما عاد
أعرف أنام ولا آكل ولا أشرب .. أنا شايل هم
أكبر مني بمصيبة أكبر مني ..
والله أحسها أثقل من الأرض وما عليها

صعق ناصر مما سمعه وأصابه الذهول وهو يرى أخاه في هذه الحالة المريعة ولكنه تنبه لما هو أخطر، فأسرع ليضمه إليه ويضع كفه فوق فمه وينتحي به

إلى الزاوية القصية من الغرفة وعيناه لا تفارق باب الزنزانة ويجلسه ويلصقه اليه وهو يطلب منه بكلمات مستمرة بالهدوء والهدوء، وثم أمره بالصمت وبحزم هذه المرة وأنطلق نحو الباب ونظر خلال الفتحة وتأكد بأنه لم يكن أي أحد يتنصت أو سمع ما دار بينهما، ولما أطمأن هرول اليه وجلس بجانبه وأخذ يمرر يده على رأسه ويتعوذ من الشيطان ويدعو الله أن تكون هينة على أخيه وهو الأمل ومن يأمل فيه بالقيام ولو باليسير برعاية أمه وأخواته في هذه المصيبة بعد فشله، فرفع برأسه ونظر في عينيه بحنان ثم ضمه اليه وجعل يربت على كتفه بعطف مظهرا له كل الاهتمام ولكن عمر أنفجر فجأة صارخا:

- أنا ماني مجنون يا ناصر والله ما...

تمكن ناصر من كتم صوته في الوقت المناسب:

- طيب اهدأ وقول كل اللي تبغاه بس وبشويش!

ايش هذا اللي كنت قاعد تبربر فيه؟

ولو أحد سمعك قبل شويه كان حطوك معايا!

لكن اش حكاية دليل وما دليل؟

وانت اش علاقتك في الموضوع كله من أصله؟

ورفع كفه عن فمه عندما هز رأسه بالموافقة على التحدث بهدوء وكان "عمر" محطما أو قد بلغ أقصى مراحل الإعياء الأشبه بمرحلة الهذيان:

- خليهم يسمعوا! أنا، أنا جاي هنا عشان

يسمعوني!

جاي عشان أعترف! وأنا بأروح للضابط عشان

وأعترف عنده وأقول له كل شيء بس! المهم انت

تطلع! انت بريء، ولازم تطلع ..

والذنب ما هو ذنبك .. لأنه أنا السبب فيه ..

أنا الحرامي، أنا المجرم ..

سارع ناصر بوضع كفه على فم أخيه لكي لا يسمع أحد ما صوته أو ما يقوله من الكلام، ورفع سبابة اليد الأخرى على شفته بغضب مصدرا صوت كالصفير ومن بين أسنانه ليخرسه تماما، وجحظت عيناه وكانت توشك على التفجر غضبا وهي تأمره بالكف عن الكلام بتصويب النظرات الحادة نحوه والتي تحمل كل الجدية والحزم.

بالفعل صمت الصغير طاعة أو خوفا أو لعجزه عن اتخاذ القرار، ولكنه قام بأقسى وأصعب مهمة، وهذا الصمت أصاب ناصر بخدر شامل وانهيار مع الارتياح الذي تم بالسيطرة على مخاوف أخيه الصغير فألقى بظهره على الجدار وبقي صامتا للحظات وهو يعض على شفته السفلى بقوة في حيرة شديدة وتفكير أصبح مشوشا ويصر على السيطرة على أخيه بأسرع وقت قبل إنهاء الزيارة، فأمسك برقبة أخيه بقوة وجذبه معها وأدناه اليه حتى صارا وجها لوجه وقال له بغضب وهو يشدد على كل لفظ:

- **ذا الحين أنت أولا وطي صوتك، ولا تتكلم إلا إذا طلبت منك وبالهمس وبس! فاهم!**

وقول بصراحة ووضوح اش اللي بخاطرك واللي
بتعترف فيه وبسرعة! وقبل ما تنتهي الزيارة.

وعاد ناصر يجدد تحذيره الحازم لأخيه:

- هاه! وبعدها إياك أسمع كلمة تعترف، أو تتصرف
بأي شيء من وراي، أو يِطّلع على الموضوع أي
إنسان لا ضابط ولا غيره، حتى ولا أمك، هاه!
عارف أمك، ما أبغاها تعرف أي شيء عن اللي
بتقوله لي..

وأمره بالكلام:

- يللاه! قول لي وبسرعة اش علاقتك بالموضوع
كله؟ خلاص ما فيه وقت، بسرعه!

وراح عمر ينظر في عيني أخاه بنظرات ممتلئة بالحزن والإحباط والألم مع الكثير من الرجاء:

- سامحني يا أخويا ناصر! أنا المقصود في الحكاية
كلها وأنا المجرم والحرامي اللي دخل بيت الجيران
وأنا خلاص! قررت أعترف لما قالوا لي حكموا
عليك وانت بريء ..

سارع ناصر بسدّ فم أخيه بكفه مرة أخرى والطلب منه بسبابته أن يلتزم الصمت وألا يكمل وعاد من جديد للاستطلاع حول الباب والفتحة ورجع بخطوات في

تأني مستغرقا في تفكير عميق حتى جلس إلى جوار أخيه ولم يظهر أي شيء مما يغلي في صدره من ثورة وغضب عارم، فالأمر يحتاج الى مزيد من التوضيح والتفكير السريع، ثم مد سبابته في وجه عمر وبصوت ممتلئ بالأسى والحسرة الوجعة ووجه الكلام همسا ممتزجا بالاحتقار وعدم التصديق:

- أنت يا عمر؟! حتى انت يا عـمر؟؟

حتى انت تسرق؟

أنت الحاجة الطاهرة النظيفة اللي كان يمكن تكون

في حياتي لولا هذي المصيبة ..

انهالت الدموع رغما عنه بانهيار أهم دعامات حياته وبأشد المرار:

- وكنت الأمل الوحيد في عيون أبوي قبل يموت

وأمي بعدما مت أنا بخيبة كل آمالهم في أخوك

الكبير وأفسدت حياتهم بأفعال الطيش وبسمعتي

الوسخة ودمرت عليهم كل حاجة حلوة وأنا اللي كنت

الأمل والمثل النظيف لبقية أخوانك...

واليوم انت؟ انت تسرق يا عمر؟

ووضع رأسه بين كفيه وانهمرت دموعه متدفقة كالنهر ثم وأمال رأسه وهو يحاول أن يبتلع ريقه ولكنه كان يغص بشدة المرارة:

- قضينا عليهم يا عمر.

أنتفض عمر ووقف وألتف بحماس ثم جلس في وضع مواجه لأخيه محاولا أن يبرر ويدفع عن نفسه ويبرئها من هذه التهمة التي سببت كل الشقاء في حياة أخيه وتشوه وتحطم حياتهم:

- اسمعني الحين في هذي كمان! وبعدها وصلني بيدك
للضابط حتى أعترف!
أنا قسما بالله ما دخلت بيتهم عشان أسرق!
والله العظيم ما هو عشان أسرق!
وما أظن أحد في الكون يكره السرقة مثلي، وانا
اللي شفت وعشت أثارها فيك ...

فرد عليه ناصر بتهكم وازدراء:

- نعم؟ نعم يا أخويا؟
دخلت بيت الجيران عشان تتفسح وتتمشى يا أخويا
في البَراد! جو سياحي هاه!

فقال عمر بيأس ومحاولا تخطي الحرج والخجل أو قتله حتى يخرج ما سيقوله ويعلنه، وقرر هذا مهما كلف الثمن فقد ضاق ضرعا من التكتم الطويل وعدم جدواه عند فساد كل الأمور:

- لا! الحقيقة غير كذا والله!
وأرجو إنك تصدقني هذي المرة كمان..
بصراحة ما جيت إلا عشان أشيل عن قلبي كل

ألم ذنبي وعاري!

وبالفعل تحقق نصره على التكتم بما يحمل من سر ومن خوفه وحرجه وجرحه البليغ:

- **انت أكيد تعرف (أنوار) بنت جيراننا .. المطلقة**
  اكتشفت اني أحاول أغازل أختها، ودعتني في مرة
  بعد المغرب وهي عند الزريبة تعشي الغنم زي
  العادة وقالت لي:
  اذا فعلا أنا احب أختها هي بتساعدني وتخلينا
  نتقابل ...

وأخرج آخر وأثقل الأثقال:

- **ومن بكرة وفي نفس الوقت طلبت مني أجي في**
  الوقت اللي تحدده وكان قبل صلاة الفجر...

هز ناصر رأسه ليواصل عمر وهو يضع يده ويمسك قلبه من هول هذه المصيبة، وأكمل عمر:

- **هي من كشفت علاقتي بأختها وأخذت تحذرني وتهددني لو فضحت ما**
  سيحصل بيننا من سر
  واذا ما جيت في الموعد المحدد بتفرق بيننا للأبد ..

هنا وأخيرا تشجع ليصبح شمشون، فلينهدم المعبد عليه وعلى جميع أعدائه:

- **وبعدها كنت أخلي أمي تصحيني قبل الفجر حتى**

أذاكر وأتسلل للموعد في الوقت المفضل لها، وهو

وقت تحرك أبوها للمدينة الكبيرة ...

وفي نفس الليلة اللي قبضوا عليك فيها كان بيننا

موعد وكانت تترك لي الباب مفتوح و ..

وقفت أنتظرها في الحوش ..

ثم خرجت من أعماقه زفرة عاصفة ولكنها مشبعة بالأسف والخيبة:

- كنا نتكلم بالإشارة في ساحة البيت وحاولت تدخلني

في أحد الحجرات ..

وحينها فاجأني خروج الأم ..

وراحت تصرخ وتستغيث:

حرامي ..

وهز رأسه بحسرة:

- هي شافتني أركض للشارع لكن الحوش مظلم وما

أتعرفت عليّ .. لكن اللي ما تتسمى

عشان تبعد الشك عنها صارت تصرخ مع أمها

بأعلى صوتها: حرامي، حرامي ..

وأنا هجيت....

وقاطعه ناصر طالبا منه السكوت، فقد أتضح له كل شيء بجلاء ولا يحتاج للمزيد فأخذ يضحك ضحكات هستيرية تحمل كل الازدراء والشماتة والأسى

الذي ظهر وهو يهز رأسه بتقزز ويكمل بقية الفصول والتفاصيل التي أصبحت واضحة ومتماسكة:

- لا تكمل! لا تكمّل! مطلقة شبقه تغرر بولد صغير

وتهدده ويركض حتى يطيح في مصيدتها والنهاية

ينقذهم الله على يد روبن هود الحرامي ..

المتعهد!

شماعة جرائم السرقات لأهل البلد والإدانة جاهزة

بناء على المراجع الموثقة والجاهزة كسوابق

وشلت أنا كالعادة يا بو سلطان القضية!

ومبروك عليّه!

أستمر ناصر بالنظر إلى الأرض طويلا ثم ظهرت ابتسامة شديدة الصفاء وغمرت جميع ملامحه وأتجه ببصره إلى أخيه عمر بارتياح وهدوء:

- لكن أسمع مني يا أخوي يا حبيبي أولا:

سواء انت سويتها أو غيرك حتما أكون أنا الضحية

فلا تلوم نفسك! وأنا خلاص تعودت قدري

ونصيبي في الدنيا ..

وهو يشير بأصبعه منبها ومحذرا:

- وثانيا: وهو الأهم! إن الشيء النظيف في حياة

أخوك هو انت يا أخويا! ولازم تبقى نظيف

وعلشاني ..

فانت عزاي وفيك لازم يبقى أغلى ما فقدت ..

وتابع بنبرات حازمة:

- ومن اليوم لازم تكون أنظف من كذا!

وأنظف من النظافة نفسها.

ولازم تعرف أن سرقة المال

أهون من سرقة الشرف!

حتى لو كانت باسم الحب! والبنت راضية!

فشرفها ما يخصها وحدها!

لأنه حق لكل فرد من أهلها ولعزوتها ولكل من

حولها قبل ما يكون لها ..

ثم وضع رأس أخيه الصغير بين كفيه بحنان وهزّه قليلا لينبهه إلى ما سيقول له من جديد:

- والآن أوعدني يا عمر حتى أسامحك، وما أغفر لك الفعلة بي إلا إذا وعدتني

أنك تكافح في دراستك وتعوض أهلك عني!

وتكون أملهم في المستقبل.

وعاد لإشارة التنبيه:

- أما الثالثة والأهم كمان: ألا تذكر هذا الأمر لأي

مخلوق غيري بعد الساعة ولا لأمك! لأنك انت

مثلي ضحية وبعدها بتحطم قلبها أكثر ويمكن

تخلص عليها ..

وبنفس الحنان والاهتمام والتحذير:

– وفي الأخير وهو الأهم!

إن الله يعلم وأنا أعلم انك بريء وأنت تعلم إني

بريء، ورايحة تمر بي المحنة مثل غيرها وأنا ..

خلاص! ما عندي شيء أخسره مثلك ..

وتوقف ليأخذ نفسا عميقا وزفره بارتياح وأشرق محياه بابتسامة صافية، مصطحبا "عمر" بخطوات ثابتة نحو باب الزنزانة وهو يربت على كتفه:

- والآن تخرج وتبلغ سلامي وأسفي للأهل، ولما

أخرج إن شاء الله أبغى ألقاك رجال نظيف وناجح

وقوي حتى أطمئن على أمك وأخواتك وأنا في السجن

وكمان أقدر أستند عليك لما أخرج ..

أحتضن ناصر أخوه وضمه إلى صدره بقوة وهو يربت على ظهره مشجعا له، ولكن نظرات عمر الدامعة الكسيرة ما زالت تطلب الصفح، وتعبر عن عمق محبته وامتنانه لعظمة أخيه بتضحيته وبقوة إرادته واحتماله الصعاب.

ودفعه ناصر عنه برفق لينظر في وجهه وعينيه وأخذ يهزّ ويشد رأس أخيه ليفيق ويخرج من حالته، ثم نادي على الحارس من الفتحة، وودَّعه هامسا بكلمات

أختتمها بقهقهة وتحمل معها تحذيرا بإصبعه وتنبيها ليتخذ من كلامه هذا وصية تحمل الجدية في دعابة قبل وصول الحارس:

- **هاه! وانتبه! لا أحد يدري!**

ولأنه وقسما لو خرجت وقلتها بين كل الناس

واعترفت فيها لكل ضابط في البلد بأنك المجرم!

صدقني ما أحد رايح يصدقك أبدا، أبدا!

لأنه أنا .. ناصر! أنا المجرم الوحيد العتيد

ومتعهد كل جرائم البلدة!

والمسنود دايما بالأثر الرجعي !

******

قتلني زوجي في مهمة رسمية

أخذت "حصة" في صعود درجات سلم العمارة كأنها تعدو عدوا في حين إحدى يديها تفتش بعشوائية داخل حقيبتها الجلدية الزرقاء الأنيقة المتدلية على كتفها، فلا وقت ترغب في إضاعته بالوقوف طويلا أمام باب الشقة للبحث عن المفتاح، ويبدو أنه استغلال جيد نابع عن إدراك واعي لقيمة الوقت كونها خريجة كلية الاقتصاد، وسكنت هي وزوجها حديثا في هذه العمارة بعد زواجهم في نهاية هذا الصيف ولتكون قريبة من مكان عملها كمدرسة أخيرا في مدرسة البنات المجاورة وهي فرصة عمل وان كانت تقوم فيها بتدريس مادة بعيدة تماما عن تخصصها كالفرق بين قرص الشمس وقرص "التّميس".

شعرت قبل مغادرتها هذا الصباح ببعض الألم الذي أصبح شديدا لا يحتمل أثناء أداء حصتها الأولى صاحبه غثيان استعان بالدوار ودرجة حرارة عالية، مما جعل مديرة المدرسة تبادر بإجازتها والسماح لها بالمغادرة إلى منزلها وهي تؤكد عليها بوجوب الذهاب للطبيب هذا اليوم وهي تخفي ابتسامة يغلفها مكر الخبرة لم ترغب بالإفصاح عنها متجنبة إعطاء التقييم الخاطئ أي فرصة لهزيمتها باحتمالات التداخلات الغير طبيعية

غالبا في تشخيص هذه الأمور.

أخيرا وجدت المفتاح وانتشلته وسيكون جاهزا ومتجها نحو المدخل في فتحة القفل لحظة وصولها باب الشقة.

الساعة تشير إلى السابعة وأربعين دقيقة! مما يعني أنها قطعت المسافة من باب المدرسة إلى باب شقتها في زمن لم يتجاوز الستة دقائق وهذا "زمن قياسي" لم تحققه سابقا وربما لن يتكرر في مرات أخرى قادمة.

وما أن فتحت الباب حتى استقبلتها على مدخل باب الشقة لفحة هواء باردة أنعشتها بما تحمل إليها من داخل الشقة وعبر الدهليز من روائح العطور التي تحبها وتحرص أن يظل العبير على الدوام فواحا في أرجاءها، واحتضنته طاردةً هالة الحرارة الملتهبة التي تحيط بجسمها ويرسلها موقد الوعكة مع ما أضافه ركضها الماراثوني من المدرسة وعبر سلالم العمارة حتى وصولها الشقة.

أحست بجسمها يرتعش للبرودة النشطة حين صافح الهواء العرق المتفصد من جبينها ونحرها المتكشف له وهي تندفع بصدرها مع حالق الباب ورفعت رأسها حتى تنتعش بأخذ أنفاسها بالوضع والاتجاه المثالي ليحيط بجميعها تلك النسمات الباردة وتمرق إلى أقاصي جوفها بينما يدها اليسرى ولا إراديا أخذت تقوم بمهمة تحرير أزرار قميصها العليا لتزيد من تعرض المساحات المنكشفة لتعطي الهواء فرصة أكبر ليتغلغل في مسامها وإلى أبعد عمق حيث تشتعل السخونة فتطفئ ما أمكن ويخف تصاعد أورها ويمتص ما تشعر به من بوادر حمى وما معه من توابع الألم والإرهاق الشديد، ولاشك ستنتظم عندها أنفاسها اللاهثة من صعود السلام المتعب.

وبينما يدها الأخرى في الطريق لدفع الباب لتغلقه خلفها وصدرها سينفث طاردا آخر شحنة تملأ رئتيها من الهواء الساخن وتحمل ما يعلق به من خَبث الحريق في جوفها وكان على وشك أن تطلقه زفيرا عاليا لولا أن ميزت أنفها فيما جلب هذا الهواء القادم من جوف الشقة ما أنكرته وجمّد أطرافها، وشلت حركتها وتصلبت جميع أطرافها عند وضع محدد كتمثال، ولكن عقلها ظل مستيقظا نشطا يومض بأنوار حمراء وفي حالة استنفار شامل، وتدفقت بداخلها أمواج من التساؤلات تتلاطم بعواصف من الأسئلة، ولأن كل شيء أخذ ينطلق فيها في تضارب وتسارع ومركز كزخات سلاح آلي فتطلق الأسئلة وتجيب وبلا وعي تكرر نفس الأسئلة وتجيب عليها بسؤال آخر تتبعه عشرات الأسئلة، وتلاحق وتعترض وتخمن وتتفجر أمامها الإجابات في نهايات من المتاهات تفيض وتجرفها أنهار من الشكوك والعجز والقنوط ثم سيطر عليها الاحباط.

فالهواء الجديد الذي كانت ستملأ منه رئتيها مرة أخرى حمل إليها رائحة نافذة ومميزة عرفتها جيدا وجعلت فكرها يعود إلى نقطة صفرية جديدة، ومواجهة ظرف طارئ جديد ربما مربك أو خطير، فما غزا أنفها إلا وضع غير طبيعي، إذ نفذ في صدرها وبقوة رائحة تبغ قوية وطازجة من سجائر تبدو ما زالت مشتعلة، وكالفلاش طفق أول سؤال بحماس إلى ذهنها:

- وربما لا. وبالتأكيد لا! فقد غادر مسافرا في الساعة الرابعة فجرا وعلى رحلة الساعة الخامسة والثلاثين دقيقة متجها إلى جدة في مهمة عمل

رسمية ليوم أو يومين!

لكن يجب الإقرار من خلال موقف "حصة" بأن العقل البشري الفذ يكون عظيما حين يصبح تحت المحك ودخل في تجربة المواجهة مع الظروف الغير طبيعية، فتظهر مقدرته البعيدة عن التخيل في سرعة التعامل والتحليل والاستنتاج، كهذا الموقف، وللعلم! أن جميع هذه الأحداث من لحظة وقوفها بالباب حتى نهايتها بسقوطها مغميا عليها ولكن ما دار فيها من مزيج المشاعر ولم تستغرق زمنا من الدقائق أكثر من عدد أصابع اليد الواحدة وربما أقل بكثير، إلا أنها جرت بالزمن العقلي وعمله له حسابات خاصة، فمرور الحدث في الزمن العقلي يعتمد على سرعة عقلية يديرها جهاز معالجة متفوق لن يصل إلى سرعته وتدفق المعلومات ومعالجتها لاستنتاج نوعيات الأحاسيس أي حاسب عملاق متطور حتى قيام الساعة، ولن يصل إليها سوى عقل بشري ومطابقا في مواصفاته وفي الحس ونوعية الموقف.

ولكن معالجة الحدث بسرعة ومنطق اللغة بالكلام أو الكتابة فسيتضاعف الزمن مرات ومرات ليستغرق ساعات طويلة أو أيام وبمنطق الكتابة قد يصل لمئات الصفحات، والجدير قوله بهذا أن حوارها كان يجري بلغة التخاطر العقلي بين "حصة" ونفسها ولم يزد الزمن على الخمس دقائق لا أكثر حتى نهاية القصة، ولكن احتساب الوقت بمنطق الشعور يكون نسبيا، لأنها كانت تعيشه بحسها وكأنه أستغرق ساعات طويلة وربما عاشت لحظات كالشهر أو دهر. ربما!

وهذا ما يحدث مع حصة، ففي ثانية أو أجزاء منها كانت

في مواجهة وصراع كان طويلا في لحظات كان عقلها يقوم فيه بعمله فيحدد نوعية المواجهة بمدى تأثره بالموقف ووضع مقاييس للأحاسيس كدرجات الخوف في العمق كردود أفعال، ليأتي دور العقل الأهم والمكتمل باستيعابه والتحليل لجميع العناصر المحيطة ثم تقديراته وقدرته للاستنتاج ووضع الحل، ويعني مجمل تفاعله الذهني حتى وصوله لقرار، وبمنطق هذا الحس اللحظي كانت حصة استرجعت الكثير وتذكرت الكثير واستحدثت مثلها من الأمور والتفاصيل وطاف عقلها كثيرا بين الماضي والحاضر والمستقبل وتمحصت في كثير من الأهميات لعلها تستفيد بما يساعدها في إيجاد حلولا لأزمتها وها هي تبدأ مع نفسها:

- أنا رتبت كافة احتياجاته في مساء الأمس، حتى انه أتصل آخر مرة وهو متجه لصعود الطائرة وقطع المكالمة على عجل، فيستحيل أن يعود ولو أراد فالرحلة تستغرق خمس ساعات وأكثر ذهابا وعودة، مع نصف النهار المتبقي لينهي المهمة المتعلقة... إذا ! من يكون؟

كان لابد أن تأتي إجابة عادية للسؤال الطبيعي وأجابت عليه بعفوية وثقة قاطعة وفي أجزاء من الثانية لترتعد أوصالها لهذه النتيجة التي لم تكن تتمناها أبدا:

- يا ويلي! لابد وأنه حرامي! أو لص!
- ماذا؟ يا لسخفي! فاللص هو الحرامي ..

- ولكني في مصيبة! في مأزق! ماذا أفعل؟

وتستنجد بالأفكار وهي تنهمر من أقوى وأسرع المعالجات في البحث عن الحلول، فالوضع المستجد تجاوز جميع ألوان التحذير والاستنفار فلتكن للعقل قدراته الاستثنائية أيضا، وهي أكبر، فالخطر قد دخل مع الأبواب بل وتجاوز أقصى عمق الشقة، فها هي تتوصل لأول النتائج:

- كم أنا ساذجة حقا! كيف يكون لصا وباب الشقة
وجدته مقفلا وغير مكسور؟

ليأتي الاستنتاج المضاد منها بالرد المعاكس وبسرعة:

- هيه! اللصوص هذه الأيام لديهم كل التقنيات ومن
الوسائل المتطورة لاقتحام البيوت وغيرها ولم
يعودوا الآن بحاجة إلى وسائل التكسير والخلع
القديمة نعتلات ومطارق لاقتحام الأبواب والنوافذ
وتهشيم الزجاج وعمل الفتحات بالأزاميل
والشواكيش .. و

(فنهرت نفسها ساخرة):

- كفى! كفى! حسبي هذا؟ كأني درست بمعهد مهني
أو في كلية التقنية اللصوصية؟
لكن بالحق! كيف حصلت على هذه المعلومات؟ أو
كيف وصلت اليّ؟

أعتقد إنها .. درس من حصص مواد أبله كروش.

وتداركت الأمر لتكف عن السخرية في هذا الموقف وأعادت نفسها للهدوء وللتفكر بواقعها ورائحة التبغ تفرك أنفها بشدة:

- **كفى! فالأهم ماذا بعد؟ ما العمل؟ الموقف خطر**

واستنتاجاتي غالبا خاطئة، أو غير مسعفة.

وفي صرخة عقلية بالتأكيد غير مدوية بل صامتة:

- **أريد الحل؟**

هل أتراجع؟ انسحب وبهدوء، ثم أستعين بـ؟

ولكن بمن؟

وتجهمت ملامح وجهها بعنف الإحباط:

- **والجميع في أعمالهم، ولا يوجد حارس بهذا المبنى،**

وليس بالجوار هاتف لأتصل بأهلي أو بالشرطة.

وأطار صوابها ما جرى بأفكارها:

- ***ماذا؟ شرطة؟***

هل قلت حقا هذه الكلمة؟

وعند هذه الكلمة عادت للتركيز مرة أخرى لما وراء الكلمة من تبعات:

- **نعم شرطة! وليكن!**

ولكن أين أجد هذا الهاتف، والآن؟

- **و لكن لماذا الشرطة؟**

ألا يمكن احتمال الخطأ؟ كيف؟

- **بافتراض أن زوجي قد عاد تحت ظرف ما، ألن يكون مجيء الشرطة مهزلة؟**

- **طبعا ومحرج! ربما مرمطة! لذاً يجب التأكد أولا!**

- **صحيح! يجب تحري صِدق المعلومات والبلاغات، والدقة! و.. والمهم؟**

وجمدت في مكانها لحظات لتجرفها موجة جديدة من الوساوس والمخاوف وتحليلاتها العقيمة، فكل ما تتوصل إليه يرتطم متحطما بحواجز وأسئلة من مخاوف جديدة وشكوك معاكسة، أو بالتردد!

إن "حصة" حديثة العهد بتجربة الحياة الزوجية، فزواجها كان في آخر الصيف الماضي وقبل بدء الدراسة بشهرين، أي منذ أربعة أشهر فقط، وقد يكون للحمل ولو بصفة فردية عوارضه وتأثير مباشرة أو غير مباشر باضطراب حالتها النفسية بالتردد والتوتر والمبالغة بتوالد المخاوف، وسبب الانعكاسات المزاجية لعواطفها وبالتالي سلوكها العام الذي يعاني من عدم وضوح الرؤيا وانحسار الثقة وميوعة في استقرار القرار لاختلاطه بالحيرة والشكوك والتردد، وهي لم تعلم حتى هذه اللحظة عن إمكانية حملها لجنين ولم يخطر ذلك في ذهنها.

وربما تجري الأحداث عن سلوك وتصرف عادي خاص بها ووقعت تحت ضغوط تفرضها تجربة جديدة وغير طبيعية وفي حياة مازالت جديدة ومختلفة جعلتها كالريشة الصغيرة بين دوامات من التيارات الهوائية المتقلبة.

إنها في أزمة حقيقية! وفي مواجهة من الوزن الثقيل ملأتها بالرعب وبالمشاعر المحمومة وأعجزت معظم قدرتها العقلية وخبراتها المحدودة وأجبرتها على دخول تحدّي كبير في دوامة من المتاهات السريعة المربكة حتى حصرتها في نقطة لا تبارحها تنعدم فيها الجاذبية والوزن وتفقد فيها كل قدرة على التحرك أو التصرف ذاتيا.

وها هي تقف في مكانها تستنجد وتمتلئ بالتساؤلات في تسارع ولا تجد لها ردودا سوى أسئلة أخرى لا تملك الرد عليها وتكرس من وجودها في نفس المكان والموقف وبالمزيد من التشويش والإحباط، وراحت تسترسل في حديثها مع نفسها:

- أأطرق الباب؟ أو .. أدخل؟

يا لذكائي المتوفى؟ وان لم أجد زوجي!

ووجدت لصا أو مجرما!

- يا ويلي! فإن لم أكن هدفا فسأكون حتما؟

سيصبح القط المحاصر نمرا شرسا، ومفترسا

- حتما وألف حتما سأكون وجبته الشهية والجاهزة!

وتسارع تدفق مخيلتها:

- مؤكد سأتحول إلى ضحية وبأشكال متنوعة،

لأني طريق خروجه من المصيدة، ببساطة

سيكون ذلك

وعلى جثتي .. يا ألهي!

وماذا لو فعل ما هو أشنع! لو فكر بشيء آخر؟

أن يغتصب ... ني؟ آه!

يا للهول! لا، لا!

شيء فظيع .. ومريع! لا، لا!

وزادت بها الضغوط بالمخاوف:

- بلى! وبالتأكيد سيقوم بذلك، بل وجميعه!
- طبعا وجميعه؟

طبعا وسينتهي بقتلي، فأنا ضحية وشاهد!

وبهلع:

- طيب! وان فعل فعلته، وجميعه هذه، وتركني

هكذا ..

أعني... أي دون أن يقتلني مثلا؟

- ماذا؟ ماذا؟

لا! لن أقبل بهذا؟

يا للفضيحة! لن أقبل بغير قتلي، يا للعار!

- فأنا .. بالطبع لن أعش بعدها!

في وضع مذل ومهين كهذا!

وكادت تصرخ حقيقة بهذه العبارات وقد أرعبتها تلك الأفكار:

- سأفضل الموت، عندها سأقتل نفسي!

طبعا! سـ .. سأذبح نفسي!

أجتاحها الذعر الشديد بعد أن راودتها هذه الأفكار المريعة وبدأت تفرك كفيها وأصابعها بتوتر، ويستفحل قلقها كلما استمرت تسد على نفسها ما تفتحه أمامها من المنافذ وتنساق من جديد في ترديد وزيادة مخاوفها، لتعود تستنجد وتتوسل إلى الله أن ينجيها وتجد أي مخرج، وفجأة! قدح لها بصيص فكرة، من خلال سحب القنوط الداكنة في رأسها والمحيطة بها وتحجب عنها الرؤية، فشعرت به ارتياحا يسري في شرايينها:

- لن أقدم على مغامرة الدخول اللعينة!
- بل سأصرخ، والآن!
- ولكن! يجب أن أكون في المكان البعيد والآمن!
- اللعنة! آمن ؟؟

هذه العبارة والمعضلة أطفأت الفكرة وجعلتها تعود رأسا على عقب لتزدرد جرعات يأسها ومشاعر الإحباط المريرة وتعود إلى حسابات جديدة، بعد سيل من التساؤلات بدأت تنهشها مع خواطر معاكسة تفند صلاحية أي حل أو وسيلة:

- أي أمن وأي آمان وبطيخ؟

والمجرم سيتمكن منّي وسينتهي من جميعه في

هذه العمارة شبه الخالية وقبل أن أنهي حرف اللام

والنون من (النجدة)

- **طبعا وكيف ستصل أي نجدة! وأنا لم أتلفظ لطلبها حتى حرف النون!**

وبيأس مرير:

- **ليس من رجل في هـذا الوقت بالمبنى، ولا يوجد فيها حـارس! حتى جارتي!**

وكأنها وجدت ما زاد من أحزانها وقوى من يأسها:

- **نعم؟ من قلت؟ أم مسعد؟**
- **آ خ، وألف آ خ منها، فلن توقظها انفجارات صواريخ "سكود" على باب غرفتها!**
- **تلك المرأة المدمنة ... للفضائيات وجميع أنواع المسلسلات المكسيكية والأرجنتينية، حتى الهندية ..**
- **إنها لا تنام إلا مع شروق الشمس!**

وزاد هذا المعدل:

- **أي لن يسمع أي أحد هنـا صراخي أبـدا!**
- **وان طلبي للنجدة سيتلاشى بأصوات أجهزة التكييف وهدرها في كل أرجاء المبنى ويغلف بالصمم كل الأذان، ثم ليس هذا فقط!**

ومازالت تبحث وتجد المزيد من الاحباط:

- صحيح! لان جميع شقق العمارة محكمة الإغلاق،
وكل الجدران والأبواب والنوافذ "عازلة للحرارة
والصوت
والضوء" أيضا!
- طبعا! فلن تسمح بدخول أو خروج أي ذبابات ولا
أي ذبذبات! لا طويلة ولا قصيرة!
- ولذا! لن يسمع أحد أي نداء للنجدة!

وراحت تهز رأسها لبلوغها قمة اليأس والإحباط وهي تقول:

- إنها لعنة التطور في البناء، لماذا لم تتأخر حتى
الغد أو الف سنة؟
فمهما صرخت الآن لن يسمعني أحد وسيهجم عليّ
اللص المجرم ليستمتع بجميعه وبالانتقام مني شرّ
انتقام و .. أأ آه !

هل صرخت السيدة؟ أم ماذا جرى لها؟

لقد كان من حسن حظها أن تمكنت في أقل من اللحظة من كتم صرخة كانت ستدوي مجلجلة في أرجاء العمارة حين أطبق الباب منغلقا عليها داخل الشقة، لقد أنفلت من بين أصابعها دون أن تعي وهي غارقة في زحمة الهواجس وشارك في التنفيذ دفعة مناسبة من تيار الهواء المنساب عبر الدهليز ليمرق من الباب

إلى خارج الشقة، وبرغم إن صوت انغلاق الباب كان شبه مكتوم ولا يمكن سماعه إلا أنه تضخم في عقلها وهواجسها مدويا، وساهمت مخاوفها في إكمال ما لزم، حين جسّدت أمامها المشاهد ملونة بحدوث كل ما سبق وفكرت به وتصورته وما سيفعله المجرم بها!

شعرت بالأثقال الهائلة تنزل على أكتافها وبالفزع يصرخ بأذنيها، نعم! لقد دخلت فعلا بنفسها وبرجليها للمصيدة وإنها بعد لحظات ستصبح الرؤى حقيقية، وهي الآن أمام هذا المصير وجها لوجه، ولم تصدق حظوظها حتى الآن وتثق بأنها فعلا تمكنت من كتم صرختها! وأن صوت غلق الباب كان خافتا غير مسموع، ففي يقينها بأن الصرخة قد استقرت في أذن المجرم كقرع الطبل وكذا قبلها صوت الباب، وتأكد لها أن جميع ما تتحدث به الآن في سرها ينصب أيضا في أذنيه وحتما هو جاثم في مكان ما من الشقة متربص بها، أو ربما هو في طريقه إليها من مكمنه!

فاستدارت رعبا نحو الباب لتهرب ومحاولة فتحه بسرعة ويداها تنتفض كعقلها وأرجلها من الربكة وشدة الذعر وتتمتم:

- يجب أن افتح الباب بسرعة!

يجب أن اهرب الآن. يجب أن أهرب!

ولأن تفكيرها شُل تماما فقد أضاعت ونست تماما أسهل طريقة معتادة لفتح باب! فراحت يداها تعبث على الباب في كل مكان واتجاه، فتمسك بشيء وتفلت أي شيء، ولم تكن تعي ما تفعل، فأخذت تدفع بكل جسمها على

ألواح الباب المغلق علّها تنفذ منها من خلال جزيئات أخشابه وذراتها إلى خارج الشقة ثم تنطلق إلى أقصى قارات العالم. وتنبهت بأنها لم تنجح! بل أحدثت جلبة أخرى مسموعة وستكون البداية للأحداث الرهيبة آتية لا محالة وفي الطرق إليها! وقد حدثت فعلا!

وتسمرت في مكانها وهي تسمع وقع خطوات قادمة إليها في الطرقة من الخلف.

وهي تسمعها تزداد وضوحا باقترابها بينما أسلمت لليأس من فتح باب الشقة، وجاء إخفاقها من الرعونة التي ولدتها تراكمات المخاوف وتضخمها.

وأخذت تجمد أطرافها، بل! الدماء في كل خلية في بدنها من هول إحساسها بالرعب، ولم تجرؤ على الالتفات، كي لا تبصر بعينيها تقاطيع وجه المجرم المخيفة، ثم تتالت عليها المشاهد السابق تصورها في شاشات عرضها الداخلية، مع الفلاش باك في استعادة سريعة خلفية لجميع المقاطع المتصورة مسبقا وللأكثر رعبا وأبلغها تأثيرا!

والشريط حوى أنواع المشاهد والمناظر المؤذية التي لا تسمح بها أي رقابة منفتحة أو متسيبة حتى رأت نفسها أخيرا جثة هامدة على البلاط ومغطاة بالجرائد!

ومع هذا المنظر كانت تتماوج في أذنها موسيقاها التصويرية المناسبة لتلك النهاية المؤلمة الدامية وذاكرتها ممتلئة بالكثير من مشاهد الجريمة والرعب والكآبة بفضل ما تكدسه أفلام ومسلسلات القنوات الفضائية التلفزيونية.

وأنفلت قلبها يرقص بأنواع رقصات الموت الهستيرية، ويرفرف بعنف من حلاوة الروح ليشق قفص صدرها ليولّي هاربا إلى أقصى نقطة في الكون، وأحست بأنه فعلها! وتساءلت:

- هل رحلت يا قلبي فعلا؟

هل فعلتـها؟

هل رحلت روحي؟

سألت نفسها هذا السؤال لشعورها باستفحال الدوار والخدر مع برودة تسري وتنتشر في كل أطرافها، فأخذ جسمها يترنح ويثقل ولكنها سمعت وهي في طريقها للإغماء العميق والانهيار الكامل صوتا بدا ليس غريبا! وأن كان مازال يمتزج بخلفية موسيقية من أفلام الرّعب ولكن المؤكد بأن الصوت مستمر ينادي باسمها وكأنه صدى قادم من عمق صحراء:

- مين؟ حصة؟ يا أهلا! وألف هلا، يا كل الغلي!

خيرا إن شـاء الله؟

خرجتي مبكـرة اليوم!

ولكنه جحظ بعينيه وشعر بان قلبه ينزع من صدره أو سيتوقف وقد أرعبه ما رأى من أمر حصة ووضعها وهي تترنح للسقوط فخرج صوته صارخا مع اندفاعه نحوها:

- حصـة؟ حصة؟ ..

كانت تترنح وأخذ جسدها يفقد تماسكه هاويا نحو الأرض! مع إن صوته الصارخ باسمها وتلقفه لجسدها المنهار قد تمكن في آخر تلك اللحظات المروعة من أن يرجع قلب حصة الهارب إلى قفصه وأن يمنع موته المحقق بالمفاجأة المفزعة بقيامه بعملية إنعاش سريعة وناجحة إلا أن هذا الصوت فشل في إنعاش ذهنها تماما وإنقاذه من الولوج أو إخراجها من أنفاق الغيبوبة التي أحست بهجمتها من جديد والأرض تميد تحت قدميها ثم أتمت رحلة الغيبوبة بعد تأجلها لثواني وأخذت تهوي...

وكان زوجها "محمد" هو الأسرع وتلقفها بعد أن قذف إلى الجدار بكأس الشاي الساخنة التي فرغ للتو من صنعها وشاهد زوجته في ذلك الوضع المفاجئ، وكانت هي في انشغالها بالصراع مع مخاوفها هواجسها وفي عمق عاصفة الهلع بانغلاق الباب الخارجي، وطوقها بين ذراعيه ولكن زاد ترنحها وأصبح لجسمها ثقلا متزايدا تتحكم به الجاذبية الأرضية نحو السقوط، فحملها إلى الغرفة ووضعها على السرير.

كانت مستلقية و وجهها متشرب بصفرة ويكسوها الشحوب، يابسة الرمق، وقد تحولت منها إلى زوجها في عينيه وملامحه كل مشاعر الخوف والقلق وفي يديه المرتعشتان وهما ترطبان شفتيها ببعض الماء ويدلّك أطرافها حتى بدأ جريان الدم يتدفق في عروقها من جديد، وبدأت تفيق شيئا فشيئا وتسترد لونها وبعض وعيها، فأعاد ملء الكأس بالماء وساعدها على الجلوس لتشرب وهو

مازال يرتعش قلقا، ويستمر بالضغط والتدليك ومحاولا أن يخفي في عاصفة التوتر التي تجتاحه مشاعر الهلع فيما يجرى لشريكة حياته.

وبالتأكيد لم تزل غنهما كل تلك المخاوف والهموم تماما قبل أن يحضر الطبيب الذي استدعاه زوجها والذي طمأنهما بعد فحصها وفاجأهما وبالتأكيد على سلامتها وسلامة حملها.

وحتى حين وصول الطبيب كان على محمد أن يستمر بتمريضها وتشجيعها، فقال لها بابتسامة حانية رقيقة مداعبا:

- **يجب أن تصدقي يا حبيبتي كم فرحت أن حدث**

ذلك العطل للطائرة...وإنزالنا منها، وأني بلغت

رسميا بتأجيل المهمة!

فقلت: هو الخير إن شاء الله!

أرجع لحبي!

"لحصوصه" حياتي! فهي من تستحق الآن بأن أقوم

لها بأجمل "مهمة رسمية خاصة"!

فعاد بي قلبي من المطار محلقا بأجنحة الشوق

بلا أسفار ولا أخطار

كانت وكأنها تسمع صوته وبدء كلامه هذا أثناء عودتها من خلال سحب الإغماء كالوشيش الخافت لموجات هادئة قادمة من أعماق البحر، وحين بلغت إلى درجة لا بأس بها من التركيز تنبهت بأن هناك أصوات أخرى حولها تغزوها

غير صوت زوجها، وعرفت أنه صوت جهاز التسجيل أو مذياع خافت ولكنه أيضا مغمور في قاع بئر عميقة وصدى صوته يتصاعد ويخبو وكأنه قادم يمتطي تلك الموجات أو على زورق صياد من البعيد، وشدها ما ينساب منه كالغناء! وبازدياد الوضوح مع ازدياد وعيها، ولكنها أحست به ينبثق من أعماقها كالأنين! أو هو صوت شاك أو جريح وأنينه عذب اخذ يتسرب الى أعماقها، فأصبحت الكلمات واضحة بينما تسمعها بأذنيها وتحس بان ما فيها من العتاب ينبع من قلبها وهو يقول:

- ***انت فين...والحب فين ...***

ظالمه ليه دايما معاك.

تبسمت حصة أو حصوصه كما يحب أن يدللها وكانت ابتسامتها واهنة وفي شرود ما زالت تسمع ذلك اللحن وهذه العبارات لتمتزج مع ذكريات ما سبق من بقايا جحيم خواطرها في هموم كانت عصفت بأعماق نفسها طوال تجربتها القريبة، ويبدو أن الكلمات الشاكية المعاتبة جرفتها تيارات تلك العاصفة الهوجاء وتعرضت أو اغتسلت بما فيها من زخات وعادت من جديد ولكن كان قد زال منها أو تساقطت بعض الحروف وأخرى تشبعت بما علق بها من دموع الكوابيس فأكملتها "حصة" همسا في أذن وعيها وغيوم إحساسها قائلة لخيالات زوجها "محمد" في عتاب عذب:

- **أنت لو كملت هاليومين.**

كان لقاك خـلاّك ملاك

وأعطت الضوء الأخضر لنداءات الإغماء التي تحاصرها حتى انتزعت وعيها من جديد نوبة قوية ليختفي خلف أجفانها المغلقة إلا إن قسمات وجهها لم تكن صامتة تماما، فملامح ابتسامتها له لم تزل تلوح بما علق بها من السعادة على شفتيها.

*****

للأسف؛ خارج التغطية!

أبناء البندقية

- *انه أمامي الآن!*

أراه لأول مرة بعد أن اختفى مفقودا ولم يره أحد عِقِبَ آخر مرة. حينها دخلت إلى قريتنا أول مدرّعة رأينها لأول مرة، وأطلقت نحو القرية أول قذيفة، وأنفجر أول صاروخٍ بأول دار، ودنّست قدم أول جندي أول بيت ليطلق فيه أول رصاصة لتقتل أول شهيد وتستنجد بالرب أول ثكلى...

كان ردحا من الزمن لم نعرف عنه شيئا كآخرين وقد رأينا أكثرهم هذا اليوم.

كنت حينها صغيرة وأنا أقرأ اسمه المنقوش" ونس ابن عبد العاطي"

كأول اسم طفل على قائمة المفقودين، كتبها أول من عادوا بعد خروجِ الزحف، والذين أرادت المشيئة لهم أن لا يكونوا من المعدودين، فعدّوا ودفنوا قتلى وبقايا أجساد، وبللوا أفواه جرحى كانوا كمن ماتوا وأحياهم كما يحي النائمين من الرقاد، ثم نقشوا كل الأسماء على أحجار جدران القرية المهدمة، وكان اسمه من ضمن المفقودين.

كان هؤلاء عادوا من صدمة رعبهم وبخوفهم من شتاتهم ومن ملاجئهم بين صخور الجبال ومن الكهوف وراحوا يقبلون تربة الطرقات، وكان قد دفَن الرمادُ واخمَد بصيص جمراتٍ كانت أخشابا بالأسقف وأبوابا على دور أصبحت

خاوية وبلا حيطان، فأطفئوا كل جذوة من نار لم تزل مستعرة في سيقان الأشجار بعد محرقة حقول الكرم والزيتون.

عادوا وأعينهم ترى كل يوم الجحافل تتخطى خرائب قريتنا وتعبر حاملة الجحيم والألم والأنين لقرى الجبل والوديان، وتنشر فيها الأفاعي لتجول في كل مكان وتتخفى في البيوت، وتُرى منها رؤوسها وأذيالها عيانا بين الجحور وفي الأوكار.

بعد ذاك اليوم المشئوم بأعوام تجاوزت العشر استمر سماع اسم "مغاوير الجبال " يتردد سرا ثم هتف له الشيخ وباركته الأرمل وتغنى به الطفل، وأمسى الحديث الذي لا يُمل في الجبل والوادي والسهل، وأصبح اسما ورمزا، ونداء للغوث والنجدة، وللانتقام، ومشعلا يضيء الجبال بالآمال.

"مغاوير الجبال" فرق من الضواري والكواسر تطوف وتترصد وتكمن وتفتك بأفرادهم والتجمعات من الضباع الخبيثة حتى انسحبوا وطارد المغاوير فلولهم المولية لتتركها رِمماً بين الصخور تتغذى بها الديدان.

"أبو السِّباع "كان اسم شفرة النصر ونعيق اللعنة في العدو، كان كلمة واحدة ولكنها في آذنهم فرقة رعب تشقيهم في الليالي وفي النهار تتعبهم في كل مواجهة وتنكل بهم وتُسيل منهم جداول دماء ثأر لنا كدفعات صغيرة من ديون الانتقام.

وكنت قبلها أكبر في سني بالأيام وتشيخ القرية في اليوم أعوام حتى أخذَت تظهر من حولنا مغاوير الجبال وتكثر وتكبر البشائر وأخيرا تحقق في هذا اليوم كل ما كان من الوهم والأحلام.

وفي هذا اليوم جفّفت القرية مدامعها، وشوهدت أسنان أهلها الناصعة بضحكاتهم أكثر من رائعة وستبتهجون منذ اليوم وهم يرقصون للنصر بسعادة وسيدفنون تحت الأرض بدبكات أرجلهم أحزان وهموم الماضي وما كان فيه من آلام تسري علينا كل ليل في الظلام وتسهرنا بالمخاوف وبالأسقام.

وكنا رأينا في ظلمة الليلة البارحة من عبر من هنا وهو آخر أقذر جندي يرحل عن القرية والجبل والوادي، ومع شروق الفجر الجديد وطئت أرضها قدم أول "مغوار" وهو يحمل لواء النصر.

وخرجنا، الجميع ولم يبقى أحد في الدُّور، بيننا من يزحف وحملنا البعض على ألواح أو على الأكتاف، حتى أصبح الكل هناك يحتفل بمن رفع على القرية راية ـالحرّية والأمان، وتغنينا بأخذ الثأر وبغسل كرامتنا من المذلة والعار.

- لماذا تركتهم؟ ولماذا لم أفرح معهم؟

ولماذا أنا هنـا؟

كنت أقف حينها كما اعتدت كل يوم عند لوحة أسماء المفقودين المكتوبة على الجدار أخاطب نفسي: " ليتهم معنا الآن، يعيشون فرحتنا" وأخذت أمسح بيدي وأتحسس بأصابعي فوق أحد النقوش حين سمعت صوتا من خلفي وكأنه فوق كتفي:

- *هذا اسمي!*

استدرت ذعرا تهزني فجأة الصوت الغريب والقوي! عل ما سمعته أسوأ مزح ثقيل! وسألت نفسي الحائرة:

– أيعقل أن يحمل هذا اليوم لي أنا المزيد من قوة الأقدار؟

فرأيت قامته الطويلة، بألبسة المغاوير، وقد عقد يديه خلف ظهره وهو يدير وجهه نحو شطر القرية الآخر.

تنبهت وخرجت عن خوفي وقد سمعت صوته الأجش يستطرد مستفسرا:

– أتعرفينه؟ أقصد هل انت .. من أهله؟

أجبت بحرج وأنا انظر إلى الأرض، مأخوذة المشاعر:

– انه، أنه، نحن .. كانوا جيران لنا في الصغر قبل

فأكمل هو حديثي مباشرة:

– قبل أن يبيدوهم!

وعاد صوته مرة أخرى وهو ما زال يدير لي ظهره:

– قلبي يحدثني .. لابد انكِ ..

" وعد "! ..

عصفت بي فرحة حائرة متلعثمة بالخوف والخيبة والرجاء ولكنها ظهرت:

– وقلبي يحدثني بانك هو ..

" ونس"!

ولد الشيخ عبد المعطي ابن عبد السلام

بالله عليك! ألست هو؟

فاستدار نحوي وهو يقول:

- وأنا يؤكد لي قلبي انك " وعـد " ابنة جارنا العم

فضل الله!

وأرجو الله أنك هي؟

رفعت رأسي وأنا أشعر بثقل جسمي يوشك أن يسحق أقدامي وفي شوق لأرى ووجهه لأول مرة ولكنها كانت أخرى، كان يسير جوار العمدة ولأول مرة، فارتعدت أوصالي وهتفت مأخوذة بدهشتي:

- أنتْ؟

كنت أراك بعد صباح اليوم في زفة أهل القرية

لمغاوير الجبال!

أأنت ،،؟

أأنت " أبو السباع " العظيم؟!

وبنبرة هادئة ذاب فيها صوته الجهير:

- وأنا الآن فقط ونس ابن الشيخ عبد المعطي

عقد لساني الذهول، والفرحة دفينة فسرا، ورهبة رؤيتي للطود الجبلي الذي لم أستطع أن أستجمع لهيكله ولمكانته طرفا، كتاريخه الذي كان مجهول التفاصيل كطفل مفقود، كحياته التي لا تزال الجبال تتردد أفعاله كالأساطير، عن كفاحه وفي أبعاد صدى شهرته

بما عرف عن قوة بأسه وصرامة عزيمته وجسارة قلبه ورجاحة فكره، ويظهر معظمه هذا أمامي الآن!

كما في غموض ملمحه المثير، وفي عينيه البارزة والمتسعة كنظرات صقر متحفز، متجمدة كما لو نحتت في عيني تمثال مهيب.

حتى تعابير وجهه تحمل هذا الغموض والمتطابق الشبة بالابتسامة العالقة التي تصورتها مرسومة على شفتين يبدو أنهما ستُفشلان حتما أي مجهود لصنع المرح عليهما.

ورأيت على انكسار ضوء شمس الضحى في صفحة وجهه الجانبية ظلال شروخ عميقة ومتشعبة كتصدعات زلزال وهتفت متسائلة بذهول:

– ما بالها؟

فجاءني صوته هادرا يتهدج قادما من عمق حاملا تلك الابتسامة الصارمة بإجابة متسائلة أيضا:

– لم تعد رقيقة، هاه؟

وفشلت أن أصحح سؤالي وأحدد تساؤلي:

– أقصدهما؟ أعني النظرات الـ ...

قطَّب حاجبيه وارتسمت خطوط ظلال أكثر عمقا وسوادا في صدوع غائرة على تضاريس جبينه ووجنتيه ورفع ذراعه باسطا كفه كالمعترض باعتذار:

– وأنا فهمت القصد...

فاجأني بتلك الإجابة المقتضبة وهو يستدير عني بخطوات في جهة أخرى وفزعت أن تكون هنا نهاية حديثنا فلاحقته بسؤالي المضطرب:

– أعني لم تكونا ناضبتين في طفولتك؟

توقفت خطواته ولم يفكر بالرد طويلا قائلا بهدوء:

- **فعلا، لأنهما أفرغتا كل المخزون جارفا ودفعة واحدة في أول ساعات يتمي ..**

من أول سنة تشردي الأولى فلويت عنقي أميل رأسي كمن يفكِّر ويحلّل أمراً أو ليبحث عن حلٍ فتوصل لمعضلات جديدة، فطفقت أسأله بما جد منها:

- **ثم ما بال هذه الأخاديد؟ تبدو حقا متصلبة! بعمر الزمن!**

تنهد، وكنت أحس بابتسامة ساخرة متوارية في ملامحه المختفية ولاحت في رده الغريب المتأني:

- **ألم تعرفي أن المياه الجارية برقتها وبريقها أحد عوامل تعرية الصخور؟!**

قال ذلك ويده ارتفعت تتحسس الندوب والتجاعيد تحت عينيه وعلى خديه ثم جبينه، وأدهشتني دهشته بما وجدت راحة كفه وأنامله وكدت أقسم بأنه لم يمررها على تلك الأمكنة لعقود أو كانت تعني له شيئا، ومع ذلك أجاب بنبرات جديدة وبالتفاتة سريعة لم تستقر بعد أن غمز بأحد عينيه وهو يقول:

- **من يدري؟ ربما أنت أيضا أحد تلك العوامل؟ لأنك كنتِ وما زلتِ أشد رقة وصفاء من مياه النبع والأمطار.**

أحسست بقرصة عينه وعبارته، وتكسرت أمام عيني ضياء الشمس إلى تمازج لألوان الطيف وأنا أحوم في دوامة هذا اللغز الذي وجدته في عبارته غامضا مستعصي الدلالات!

أهي عفوية أم رسالة تودد بائنة؟

إن صوته الهادر يشعرك بأنه كهف مغلق ومغلف بقسوة بقوة الفولاذ ولن تقرأَ أبعادَه بسهولةٍ ولا بأي ثقافات أخرى على الكوكب والمجرات.

لذت بالصمت في استحياء فطري ولم أعقب، وبرم جذعه باتجاهين بحركتي تململ وتوقعت بأن سبابته تعبث بحركات سريعة بطرف شاربه الكثيف وبدا وكأنه يبحث عن كلمة أو تعبير ليصحح أمرا ما، أو كمدخل لما يعتلج في قلبه أو بفكرة ألمعية تحوم في نجم يتوارى خلف غيوم ولا يبرز ولا يستقر له بهاء في تعاقب أحجبة الغيوم فيتوه عنها مرات حتى أستخرجها في كلمات تهتز في ركاكة وعصبية زادت من تشككي وفي زيادة رؤية الغموض في وجهة كلماته والهدف:

- على أية حال .. يبدو أني قد وجدت بعضٌ مما
  كنت أفتقده. أو ما أنا بحاجة لمثله. بعد ذلك
  الحدث في تلك الساعة أعني ..
  تجربة اليتم ..

اكتفيت بتوسيع الغموض وحاولت التجاهل فقلت بصوت أشبه بالهمس ونظري يتجه إلى زاوية بعيدة حتى لا أُحدث أي اهتزازات بخيط أفكاره الذي يبدو أنه

تركني أمسك بأحد أطرافه لأجمع التفاصيل، ولكن همّي واهتمامي القديم جمح عني وأصبح عارما في الفضول وسألت مدعية السذاجة أو الجهل:

– أية ساعة يُتمٍ تعني؟

أظنه لم يتوقع أو يتقبل السماجة في تساؤلي ليعتدل في وقوفه وتوجه نحوي بالكلية وشعرت وكأن ما حولي أخذ يرتج بعنف، فوجهت نظري إلى ناحيته والى وجهه مباشرة لأشاهد فيه بعض عضلاته تتحرك لأول مرة وأظهرت في قسماته تصدعاته الزلزالية القديمة بوادر جديدة لثورة براكين غاضبة بدأت تطلق الشرر من عينيه، وغاب في أعماقه مفكرا وغاص في البعيد لأفقده تماما!

إذا به يسدل جفنيه ربما ليخفي ويواري الحمم المخيفة خلفهما أو كي لا أرى ما يعتبره خِزياً ومن أسوأ الأحاسيس التي تتولد عن الضعف ويجب ألا يفتح لها الأبواب، ولكن محاولته جاءت متأخرة وأن ضغوطات الحمم وما صنع الأخاديد أول مرة وظل متربصا في الأعماق كان هو الأسرِع والأقوى فأنفجر باللحظة الرهيبة وفي عنفها وشراسته وبالتسارع في آن، لذا حدث الانفجار الكامن المحتوم فتراجعت رعبا لخطوات وأنا ألوم نفسي بتساؤل:

– يا الهي! لقد فاض الصهير ..

ولا سبيل لإيقاف تدفقه ولا السيطرة عليه بعد أن ثار وفار. صدق حدسي فتلك هي البداية فقط، فالاندفاع بما في الداخل أخذ يتسارع، وكل حرف يلفظه الفم يخرج ملتهبا، فانتحيت قليلا بنفسي ملتصقة بأقرب جدار ولزمت

الصمت وأنا أضع كفي فوق بعضهما ليكتما بقوة ما قد ينطلق من فمي وأنا ما زلت ألوم نفسي بالتساؤل مستجيرة:

– ربي! ماذا فعلت به؟ وماذا جنيت على نفسي؟

فانتزعني صوته القوي من دواماتي وكان أدار لي ظهره ووجهه ووجهته نحو الوادي وكجلاميد الصخور تساقطت كلماته:

– كنا طفولة بريئة! ثلاثة أشقاء وصَبيّة حين

أخرجونا من بين ركام الدار التي قصفوها وعصف

بنا أول انفجار، ووقف فوق رؤوسنا أحدهم، لم يكن

لوجهه شكل أو سمات تميزه عنهم،

فالجميع، أرنبة أنوفهم تأخذ شكل خرطوم الخنزير،

وأنحني برأسه فوق رأسي قائلا لنا وفي صوته ما

أعتبره تودد وكان في أذني ينساب كفحيح أفعى:

– من أبوكم يا صغار؟ هاه؟ أين أمكم؟

ألكم أب؟

قالها وما زلنا في هلع الانفجار ونحن على الأرض يلفنا ومن حولنا الركام وكنا أمامهم كحطام بيتنا مع أحجار جدرانه الممزقة وفوق أجسامنا طبقات الأتربة والغبار والسخام، وقد امتلأت بها أفواهنا وجوف بطوننا وصدورنا ..

وتراءى لي بأن أيديهم، مازالت تقطر بدماء أبي وأمي وجميع أهلنا من أهل القرية ..

نوقف الفيضان للحظة ثم سمعته يتنهد وأتوقع أن ابتسامته الساخرة تائهة بين الغضب والحزن:

– ولهذا لم نبك، ولم تذرف أعيننا دمعة واحدة، ولم
تنطق شفاهنا لهم بكلمة .. لم نتوسل، بل تشخص
بهم أعيننا وتبصق عليهم نظراتنا ..
وكأنها أرعبتهم وارتعدت منها فرائصهم
فأخذوا يلغون فيما بينهم ويتشاورون. بينما كنت أنا
أدرس وأستذكر ملامح كل واحد منهم وأحتفظ لهم
بصور في أعماقي
وظلت معي فيما مضى من السنينَ راسخة في عقلي
وفي كل ليل أسترجعها ثم أقسم بعظمة وجبروت
خالقي أن أخرج لأطاردهم ببندقية أبي!
وان غاصوا في أعمق أعماق الأرض.

وبنفس الأحاسيس المترسة بالمرار والسخط والسخرية أكمل:

– سمعت صوت أحدهم بنفس الفحيح يسألنا هازئا:
أين أرضكم .. بني؟
وبينما هو يضحك ويوجه نحونا يده باشمئزاز
وتآمرنا بتكرار الإشارة لنا بالابتعاد من المكان

بحركات طرد للبهائم:

يللاه! أمكم وأرضكم رحلوا اليوم! وأنتم ارحلوا الآن

مثلهم، ارحلوا شرقا ..

اذهبوا شرقا ابحثوا عنهم هناك!

ومن لم يذهب منكم منذ اليوم سوف يعدم شنقا

وتحرق البقايا حرقا أو نطعم بها الكلاب، هيا!

ولم أكن أنظر إليه أو إلى أي منهم، فعيناي كانت

تبحثان في الركام عن بندقية أبي...

كان ونس يتحدث وأنا ما زلت ملتصقة بالجدار مصغية له وجسدي متجمدة في ظاهره وجوفي كالمرجل يغلي ويقاوم أحاسيس تريد تقلع بي عن الأرض لأطوقه بذراعيّ وأذيب بدني في جسده تماما ولكني أعقِلُها إلا مدامعي فتولت المهمةَ عن عينيه بسخاء ومبالغة.

وفجأة وكاللحظة التي يتوقف فيها هدير قطار الشحن أو هزيم الرعد وكصمت الوجود ساد سكونٌ خدّر مسامعي صمت خمود البركان، ولكنها كانت أقل من دقيقة كان يتحرك بتوتر في روحة وجيئة لينطلق من فمه بخار أنفاسه ينفث كدخانٍ كالتنين الساخط، وكانت فترة يستجمع فيها كل ما في جوفه من أور غضب متأجج بما لامست ذاكرته وأراد تأكيده أو شرحه فحْشرت المقذوفات في قصبة حلقة لأنها أكبر من المخرَج وأصعب من أن تْخرج، لذا جلجل

صدى صوته في كل المكان معلناً الثورة من جديد وهو يرفع الرشاش الآلي في الهواء:

- **نعم البندقية! نعم، البندقية! ونحن أبناء البندقية!**

وها هي البندقية!

نَمَت في سنوات وتناسلت وستملأ الأرض من كل

مكان، ونتسلل

في أي مكان، وستصل رصاصاتنا إلى أي كان حتى

نستعيد ونحتوي كل المكان!

حتى نبضات قلوبنا تضاهي صوت طلقات

البندقية، ولن يروا في أعيننا إلا أنصال اللهب

والشرر يتطاير تنصب فيهم زخات رصاص

البندقية. فلم لا!؟

فنحن لا نلم بشيء سوى علوم البندقية.

وسكت وراح بصره يمتد في أعماق امتداد الوادي وكأنه يلقى على القري السلام، وشمل الصمت روحينا والمكان وعاد الهدوء في نبراته وهو يسرد ذكريات وكأنه يتجرع سمومها في استسلام:

- **هُم أتوا وجعلوا ليالي قرانا الوديعة والساكنة**

نهارهم، وصنعوا من أتراحنا أفراح لهم، حين

أصبح انتزاع أرواحنا من صدورنا

فاكهةَ لحفلاتهم.

وزأر في الفضاء صارخا وبأعلى صوته ثم أصبح يتردد صداه في جلجلة بجنبات وكهوف الجبال كتتالي دوي الرعد وهدير السماء بعد الصواعق:

- **لا تندهشوا!**

إن شاة وديعة بقرت البطون! أو فراشة تنتزع

الأجفانَ

وتزدرد العيون ..

هي لن تجرَّم! ونحن لن نُلام ..

فالمجرم هو من سلبنا المشاعر .. وسلبها حقها

وحريتها ..

المجرم! من جعلنا نضطجع العراء، ونلتحف

برد الشتاء

ونتوسد حجرا أو بندقية ..

ولقد أستيقظنا ولم نجد لا أبا ولا أما، ولا صديقا

صدوقا إلا ..

هذه البندقية!

وصرخت آلام قلبه مرة أخرى:

- **ونحن! كنا نجوع ونجوع وسنجوع لنطعم البندقية**

وسنملأ بطنها كل يوم ولن تجوع أبدا وبأيدينا

البنـدقية ..

فلتعش! ولنمت كفاحا عن بندقية!

فلنعش! لتحيا بنا البندقية .. ولنموت لتحيـا البندقية!

كانت عيناه تتوقد حمرةً وظننت أن الدموعَ المختزنة كانت دما نازفا في المحجرين واكتست المقلتين بهذا اللونً المحبب، وعاد صوته متينا وقويا بالرزانة وبعيدا عن أي تشنج أو صراخ عدا قبضته التي يرفعها تخترق فضاء القرية والجبل:

– في قلبي نبضات، وتلك هي الطلقات التي

ستسكت دوي مدافعهم، حين نكمن لهم

بالبندقيـة ..

فلن ينـاموا لياليهم ..

كيف هي نومة الجبنـاء؟

أنـا (الثأر) في كل طريق قابـع واسمي زلزال

في المسامع .. وحين عنه يسألون:

ستكون البندقية الجواب القاطع:

أنا البندقية ابن البندقية!

لسـنا أيتام الأمّ!

وأمنا هذي الأرض!

ونحن على هذه الأرض وُلِـدنا، وتبنتنـا ثم ربتنـا

البندقية!

وسنفخر بين الأمم بأننا أبناء البندقية!

وقريبا! ستتمخض أمُّنا وستلد غدا ..

ولتعلموا بأنها ستلد قنبلة نووية!

فأنا الساعة بندقية ابن البندقية وغدا نحن

قنبلة نووية!

*****

الفورد الكستنائية

كنت أحوم وأحوم حولها متباهيا وأغدقها بنظرات الهيام والاعجاب برغم أنها حقيقة من الفصائل البائدة التي سادت في عقد السبعينات الا أن عروستي بلونها الكستنائي اللامع، وهي تقف بفخامة حجمها أمام البيت ظاهرة على عشرات الأقزام الآسيوية على جانبي الشارع بفخر وقد بزتها بأناقتها ورونقها الكلاسيكي العريق، ببريق زاهي منعكس تحت أشعة شمس الظهيرة الدافئة يجعلها أكثر تألقا في سواد أحداق عيني وهي تقول ألا ترى بأني وبعد مرور أكثر من عقدين أظل دائما كما أنا، الفورد الشابة القوية البهية، وفي قمة زينتي رغم تخطي عدة أجيال ومستويات من الاعمار الافتراضية بادت خلالها مئات من الطرازات التي قيل عنها متطورة، "فلتات" العصر، وهذا ما كنت أشعر بأن حبيبتي الفورد الكستنائية تناجيني به ولا ألوم مبالغتها بذلك الاطراء، ولاشك تعلم عمق غرقي ومدى تغلغل هواها في عيني وقلبي، ولا أندم على كم السنوات من جهود المحافظة المستمرة عليها والحرص على وقايتها وما أصاب به من جنون وسخط لمجرد خدش باهت يتسبب به شقي لأشبعه بالشقاء ردا على فعلته، وقد تعلم كم كنت أتجاهل وأتملص من اركاب الكثير من الناس وبعض الأصدقاء فيها حتى لا يعجلوا بتلف وتحلل مقاعدها الجلدية وايذاء ديكوراتها الفاخرة، وكيف كنت أبذل من جهود لمراقبة ومتابعة من يناله السعد وشرف

الركوب، وكم يرهقني كثيرا ركوب أولادي حين يحاولوا التحرك بعنف وبالقفز وعند اغلاق الأبواب بشيء من الشدة فأشتعل شتما أو في ملاحقة المعتدي!
ها هي الساعة أمامي كما ولدت، وليس هناك ما يعيبها الا أشياء لا تذكر أو لا تعتبر من الكبائر، فقد يكون هناك حالات من عدم العمل أو الانتظام في العمل للبعض –وليس كل– أجهزتها، كمفاجأة بشيء من الاضطرابات في عمل ميكانيكيتها فأضطر للتوقف مؤقتا فقط لجلب قطع الغيار التي تطلبها، وهذا طبيعي لانتهاء صلاحية تلك القطع منذ عقود وتكون ضرورية جدا لعمل المحركات، ويحسب لها أن كل ما يحدث لها من هذه المشاكل يعتبر شئون داخلية! لأنها لا تؤثر على مظهرها الخارجي الجميل من بعيد أو قريب ولله الحمد، ولهذا لا تغضبني أقوال البعض أو الكثير منهم من الكلام المؤذي تقريبا عنها، لكونه ينبع عن حقد دفين أو مغرض يحمل العداء للقديم أو الأصالة، فقد يسمعوني كلاما على غرار:

- *من برى هالله الله ومن جوه يخلف الله!*

أو من يقول مستهزئا:

القرد في عين أمه غزال!

فالذي لا يعرفه الكثير اني أجد فيها حقيقة وهذا بالطبع ثانيا أعظم ما يشعرني بالاحترام وبالاعتزاز بنفسي، فهي تحترمني فعلا، لاحترامها لخبراتي في "هندسة" السيارات وكميكانيكي فذ، وفي هذا هي تصون كرامتي باحتفاظها بالتصاميم القديمة والتقليدية لصناعة محركات السيارات أو "الماطور" بالذات، ثم ما حوله

من الأجهزة الرئيسية المشغلة وما يتصل بها من أنابيب وأسلاك مختلفة، فهي ما تزال تحتفظ بنفس التقنية والمتماثلة تقريبا في جميع صناعات السيارات حتى منتصف عام الثمانين حيث تتشابه فيها خارطة الاصلاحات والصيانة والعمل عليها لأنها تحمل نفس نظم التشغيل التقليدية القديمة وأنظمة الحركة وشبكات الكهرباء، وجميعها لا تتحكم فيها أو تتدخل نظم آلية ذاتية الحركة، والتي تسيطر في هذا الزمن البائس على تشغيل جميع السيارات التقنيات التي تسمى الأجهزة العاملة بالأنظمة الالكترونية الحديثة، فلهذا لا يمكن أن أشعر يوما بأي حس بالحيرة أو بالحرج وأنا افتح الغطاء "الكبوت" ولا تنتابني نوبات القلق والارتباك ثم عواصف من التردد فالخيبة المريرة فأصاب بالصداع وهي الحالات التي تصيب الآن كل صاحب سيارة يتفاجأ بتوقفها ويسارع بفتح الغطا فتتلاشى ابتسامته وهو يقف فاغر الفم بدهشة وبلاهة ويقلب البصر في المتاهات المتشابكة من الأسلاك والخراطيم والصناديق المختلفة الألوان والأحجام والمجهولة المصادر والاتجاهات ويتمنى لو عرف كيف يستخرج منها لترا من البنزين ليس ليشغلها بل ليشعل فيها لكشفها عجزه وجهله بها حتى الغباء.

ولن تتملكني مثل تلك المشاعر ولن أخجل منها أو من نفسي ولن أحمل لها سوى الحب والتقدير، وهذا لن يحدث حين أتوقف لأسعف شخص توقفت به سيارته على الطريق وأفتح الغطاء لأتباهى بخبرتي فأكتشف بأنها من ذلك النوع الحديث الأوتوماتيك والممتلئة بالأجهزة الغامضة والإلكترونية فيرعبني ما أرى

وعندها يمكن أن يشاهد انتفاض "ماتور" تلك السيارة مع رجفت أجهزتها المعقدة بشبكات الأسلاك والخراطيم حين أمد يدي لأجرب فحصها فيرتفع تسارعه واضطرابه ويسمع صوته كالمستغيث بأصحاب السيارة قائلا:

- ارجوكم! تكفون! لا يلمسني هذا الغشيم!

فحتما لابد وأن أستدير عنها وعن صاحبها معتذرا أو أنسل فورا ملقيا ظهري له كي لا يرى وجهي وأنا أعض سبابتي خجلا مما رأيت فيها ومن نفسي بافتضاح جهلي، ولهذا، سأبقى محتفظا بها ومخلصا ووفيا لعزيزتي الأصيلة الفورد الكستنائية التي تحترمني وأحترمها مدى ما عشنا من عمر، ولا شك بانها تشعر بأني لن أقدم على محبة غيرها من جيل الرقيقات صاحبات التقاليع الحديثة والرفاهيات الإلكترونية المائعة، حتى وان أعطيت لي مجانا.

وها أنذا اليوم افتح الكبوت وبكامل ثقتي لأستمتع بممارسة هوايتي وخبراتي كمحترف في اصلاح ميكانيكية السيارات وأشعر بالفخر بقولهم ما شاء الله عليك "مهندس"، فشمرت عن ساعدي وأمسكت بالمفك المفلطح الرأس باليمنى وفي اليسرى مفتاح "ثلاثطعش" المختوم متباهيا في تخيل نفسي اختصاصي جراحة وأمسك بالمشارط أو المبضع مع الملقط لأبدأ بعمليات جزارة لفتح قلب أو مخ، ولما بلغ بي الانسجام مراحل متقدمة جدا جرفني الحماس وبدأت أتدرج في انحناء محدود تحت غطاء المكينة "الكبوت" ثم ترتفع معنوياتي فأغوص لمطاردة المشكلة في القاع وأخذت أقدامي بالرفس بحثا عما تتشبث به لأرتفع بجسمي قليلا فأتعمق أكثر لملاحقة المشكلة

الشقية وبتصميم الي أقصى مكان، واذا بي أسمع فجأة صوتا مرعبا أخافني لاعتقد بأني تسببت في احداث خطأ فادح قد يتسبب باشتعال شيء ما أو انفجارا ما ربما للماتور فقررت أن أسرع برفع راسي بمبدأ الأمان لأبعد وجهي ونفسي عن أي خطورة ربما غير متوقعة كالحريق أو انفجار ما في أجزاء الماكينة، وبتطور وهم الخوف لدرجة البعد عن الحكمة انتزعت نفسي بشدة للأعلى فارتطمت راسي وبقوة بسقف الغطاء "الكبوت". توقفت قسرا عن الحركة عدى بصري الذي أتجه أماما بعفوية محاولا البحث عن وعيي ولكن الرؤية الواضحة شبه منعدمة، حيث كنت في رؤية ضبابية أشاهد أمامي نجوما صغيرة ساطعة تزوغ بسرعات في كل الاتجاهات.

كافحت لبعض الوقت لإزالة العتمة ونجومها لأتمكن من مشاهدة واجهة منزلي حيث يجب أن يكون أمامي، وبالفعل بدأ يلوح بتدرج وفي وضوح وجدته فعلا في مكانه ولكن قد أصبح له مدخلان؟ وكأنه يحقق رغبتي ذات يوم حين تمنيت أن أفتح مدخلا آخر يكون بابا للنساء! ورحت أتفقد المحرك وما حوله بعيني المحولة النظر لاستكشاف المخاطر وألسنة النار فجذب تركيزي تفجر نفس الصوت المريع ينطلق مرة أخرى!

وترصدت أذناي موقعه والوجهة لتحصل سيارتي والماكينة على البراءة بتحديد مكان المتجني والمصدر بأنه خارجي ومن مكان يقع خلفي مباشرة!

وبعد اكتشاف الموقع انطلقت منه من جديد معمعة صوتية مخيفة تلتها ضحكة خشنة تحشرج من خلالها صوت متكلم لا أنكره بل أسترد لي أغلب الوعي وأنا أسمعه يذكرني باسمي وهو يقول:

- *ايش فيك يا بو خالد؟*

بالله عليك أنفجعت يا ابو خالد؟

وشعرت بحدوث عملية الانسحاب الهادئة من حالة الاغماء وعودة الروع رغم غشاوة البصر الطفيفة مما مكنني من المباشرة بسحب رأسي وجسمي من تحت الغطاء وأجلت صرخة التألم الذي صاحب عودة الشعور محتفظا بهذه الاحساس كاملة حتى تقع عيناي على ذلك الجاني والمتسبب كي أصبها على رأسه وبلا حدود انتقاما مشروعا وان أمكن في كل مكان من بدنه لينال من جنس مشاعر الألم أضعاف نصيبي، وأرتفع رأسي وأنا أجذب الهواء لأملأ رئتي وأستدير كالضبع بغضبي وبكل جسمي وعيناي حمراوان متقدتان بلهب التوجع لأجد العدو الماثل أمامي ما هو الا جاري في البيت رقم ثلاثة المدعو "جميل زلطه"!

كان قد وصل في دبيب صامت ربما دون أن يتوكأ على عصاه كالمعتاد ومحتفظا بذلك الصوت المريع من السعال ولم يطلقه الا حين أصبح خلفي تماما، وكأنه أختزن لي كل نوبات السعال طوال الليل وضحى اليوم ليفجرها بترصد واصرار مروعة كعمل ارهابي خلفي وتحت قدمي المعلقة في الهواء في هذا التوقيت من زوابع شر مزمجر، ولكنه خمن مصيرا حالك، لا شك سيقتلعه الى جهة مجهولة

فبادر سريعا بسحب ضحكته الساخرة الخبيثة وتبديدها وتنظيف بقاياها عن وجهه وتجمدت سحنته بين الحرج والخوف وهو يري ويسمع فحيح أنفاسي ينطلق غضبا من أنفي وفمي، ولكنها فعلا حبكة كما يقال "قوية"!

لهذا صعب على هذا الخبيث التخلص من قوة تأثير الضحك نهائيا عندما رفع بصره وشاهد ورما أو صعرورا منتصبا بشموخ ويتوسط بوضوح في امتداد "الصلعة" المترامي، فسارع بشتى سبل المراوغة بمزج ابتساماته بألوان جذابة متعددة من نظرات وملامح السماحة في كلمات رقيقة تنساب بتذلل مع عبارات اعتذار جميلة في غاية اللطف والتأسف لحصول خطأ غير مقصود وبلا شك كان يتمنى ويأمل من خلال هذا أن ينجو بفعلته من العقاب الوشيك ومازال حتى خلص الى قول:

- معليش! والله ما قصدت! السماح! انت تعرف يا بو
  خالد صدري متعبني ومعذبني يا بو خالد! الله لا
  يوريك مكروه.. والله يبعد عنك شر
  الأمراض مع كبر السن .. يا حبيبي

أجبرتني بالطبع أشياء كثيرة لا عباراته المتملقة على تقبل الوضع على علاته وان على مضض وما زلت أتمنى اشفاء غليلي وعلاج مشاعر الألم واطفاء نار الغضب بالثأر، ولكني قنعت بإخماد كل هذا مع مشاعر القهر بابتسامة صفراء متأسيا بالمثل المأثور "شر البلية ما يضحك"!

والحقيقة كنت تحت وطأة رعب اجتاحتني وهي من نوع آخر، فقد دهمني الاحباط بما سيسكبه أبو سراج في أذنيَ حتى الى ما بعد الغروب، بالحديث عن معانته مع "دستة" الأمراض مع درازن متتابعة من الروايات بهموم حياته المزمنة الى أن يصل الى تاريخ الأمس ثم ما جرى له بطول الليلة البارحة وصباح اليوم حتى هذه اللحظة، وما ابتسامتي الطويلة والباهتة الا سخرية يائسة من محاولاتي الفاشلة التي كنت قررت فيها اليوم الخروج في حرارة هذا الجو في هذه الظهيرة للجلوس مع الكستنائية وكان هربا من توقيت تصيد أبو سراج المعتاد لي أنا ودون من على الأرض من البشر ليأسرني يوميا في وقت العصر ويحقن أذناي بتلك السموم، وها قد كسب مني اليوم رصيدا اضافيا بساعتين مع مكافأة مجزية لي بإكرامي بهذا الصعرور المنتصب بأعلى هامتي، وكانت ابتسامتي أيضا تحمل استسلامي المعتاد عند المصائب بالرضا بما قسمه وقدره الله حين لا تفيد ولا تمنعه عني وسائل الحيطة ومخططاتي للهرب ويثبت فشلها الذريع، فكانت ابتسامتي الباهتة في الحقيقة هي الاعلان باستعدادي لاستقبال كل الكم الهائل من المعلومات والاخبار الكريهة والمكررة يوميا ومنذ سنوات، فلن يكون فيها من جديد في سلسلة أخبار مراجعاته العريقة للمستشفيات ومواعيده مع عيادات الاستشاريين والجراحة بمواعيد التنويم للعمليات المؤجلة منذ سنوات مضت الا أخبار صباح هذا اليوم، وما وجد فيه من نتائج عن مراجعته لأحد المواعيد المجدولة على لائحة "الانتظار"، والتي تمدد آليا كل شهرين، ولكثرتها تم توزيع تواريخ نهاياتها متعاقبة بتسلسل بحيث يحصل فيه

وبيسر على موعد جديد لكل عملية منتظرة على تمديد جديد بشهرين ومباشرة في يوم انتهائه، ويحسب من تاريخ آخر موعد في سلسلة المواعيد المجدولة وترتيبها ربما السابعة فتبدأ بشهرين وبأمانة بعد انتهاء الاربعة عشر شهرا، فلا يحدث أي ارتباك لكثرة مواعيد التنويم لديه في كل عيادة وهي حتى الآن سبع عيادات القلب والكلى والعظام والأورام والمخ والأعصاب والصدر واحتمالات أن ينال توصيات جديدة لعمليات استئصال للكبد والقولون لاحقا، هذا اذا بقي حيا بعد تنفيذ عمليات الجراحة السبع السابقة، ولديه تحذيرات شديدة بالحرص بمتابعة هذه المواعيد المستقبلية كي لا يفقد فرص التمديد لها في قادم السنوات التالية للحصول على فرصة لأحد المواعيد الحلم من "أسرة الأحلام"!

وأنا أظن بأنه لن يتحقق له النوم يوما وأبدا على أي من "أسرة الأحلام" على الأقل في بحور ثلاث سنوات قادمة وقد يتحقق في محيطات أخرى، من قادم السنين!

والآن يجب عليَ ان أستعد لأراجع معه كل معاناته في سلسلة مواعيد هذه السنة حتى اخر مراجعة وكانت في صباح هذا اليوم، ولكن قبل الخوض في هذا الملفات وما فيها من الآلام والأوجاع حتى الليلة البارحة فيجب أن يمطرني بالعدد الأخير من الملفات الاجبارية التي يجب أن أسمعها منه وأعرف ما جد فيها.

ستبدأ هذه بالحديث عن الحلقات اليومية المميزة ويحرص فيها على عرض لكامل التفاصيل للجريمة الجديدة التي قام بها ولده "معتوق" الليلة الماضية وان لم يكن محبوسا، وفيها مدى تورطه في هذه المغامرة في عالم الشر، حيث تعود أن يخرج بعد منتصف الليل من السينما واستمتاعه بمشاهدة آخر عروض فترات بدأت منذ العصر وفي عدة حارات وأخيرا سيعمد للاستمتاع بتطبيق أحدث أدوار الشر وبما يبتكره في العنف والازعاج للنيام الآمنين مستغلا السكون وعمق ظلام الليل، لأنه يرى أن عليه اثبات تفوقه على عصابات توفيق الدقن والمليجي وعباس فارس وما قام به زورو واللص روبن هود ومشاكسات ومغامرات الشياطين الثلاثة، اذ يسارع الأب بذكر كل تفاصيل قضاء ليلته في مركز شرطة الحارة أو حارات أخرى، وما قدم لهم من دفوعات ببراءة ولده وما انتهت اليه توسلاته لرئيس المركز أو المجني عليهم للتنازل عن دعواهم لتخليصه. عندها فقط يطيب له الانتقال للحديث عن أحب المسلسلات في مشاكله اليومية مع الست المحبوبة "حب الرمان"، وهو الاسم الحقيقي أو الذي يدلل به زوجته "ام معتوق"، وهذه مشاهدها مزدحمة بأطنان من الشتائم يتحطم خلالها بعض قطع الأثاث وكثيرا ما يكسر أحد الأواني من الأباريق الصيني أو عدد من الفناجيل وكاسات الشرب حتى تنتهي بمحاصرته على باب الغرفة أو ينطلق في مطاردة وسباق لمنعه من الوصول الى باب الشارع.

وكنت أتصور معاناته وأنا أعايش معاناتي منه وأجدني وأنا استعرضها أحداثها خلال تلك المسافات الزمنية الطويلة المرهقة من الاستماع للمشاكل مع تخيل مشاهد كل أفلام ولده وزوجته وكل منها معاناة وكنسخ مستقلة

حتى ينجدني نداء صلاة المغرب.

أنني فعلا في ورطة وكبيرة جدا، فأبو معتوق وهو "أبو سراج" وهذا هو الاسم الذي أصبح يفضله عن السابق ولا يلام لكثرة ما سمعت وعايشت في ملفات التحميل اليومي داخل رأسي من كوارثه وتحملي الجبار لما يحدث فيها هو الظلم بعينه! وانه لظلم عظيم لو تعلمون، بل هو من اعظم جرائم التعدي على حقوق البشر وحرياتهم، وفيها أعنف جرائم الاضطهاد النفسي والعصبي المركزة نحو تدميري وانتزاع جذور السلام في عقلي، وفيها أيضا قمة التعسف في حق الجار وحق انسان ضعيف المقاومة مثلي، وصنفتها في مقدمة جرائم العصر وبأعلى درجات عن نازية هتلر وجرائم الصهيونية والماسونية، وتوصلت الى أنه يجب علي ان اسارع بشكواي لحقوق الانسان للمطالبة بإنقاذي والدفاع عن حقوقي والمسارعة بنجدة نفسي قبل الانهيار التام، لقد أصبحت أنا حقا "طبق الزلطة" اليومي المفضل الذي يستمع به كل يوم "جميل زلطة" وربما يراني طبق تحلية "السويت" الأفضل له بعد كل طبق ساخن تذيقه أياه "حب الرمان"، والمؤكد أنه أصبح مدمنا بي وبأقصى درجات الادمان ولن يرضى بغيري وان أعطوه حملة في "هاف لوري" من صناديق الرمان الطايف وشحنة أخرى بأجود مكونات السلطات العربية والأجنبية فلابد أن يستمتع بي!

لهذا قررت اليوم بأن أستلم قبله دفة الحوار والاستقبال الواعي والمركز من أجل التحكم به ودفعه بأسرع وقت نحو الغايات التي اريدها واقتصاص أكثر المشاهد وحذف كافة التحويلات الجانبية والغاء تسلسل الروايات والاقتحام متى وكيفما شاء وهذا لاختصار سرده للمواقف والقفز به دائما الى النهايات وفورا ان أمكن، كأن ألغي حديثه عن جميع المواعيد ودفعها حتى الاسبوع القادم فقط متجاوزا كل الزمن بتشتيت اتصال افكاره وأوصله سريعا الى نتيجة مراجعته هذا الصباح لموعد التنويم الأخير، فقراري نهائي وعلي التشبث بقوة بالفرص والتداخل بسرعة في كل موضوع لمنعه من السرد والاطناب:

– *أول شيء! يفداك راسي والصعرور يا ابو سراج!*
بس بشرني! عساك اليوم "سبع" وجبت
الموعد أبو شهرين المعتاد؟

ونجحت فعلا بعدم ترك الأمور بيده ولمست منه سرورا بسؤالي عن هذا الأمر لما يحمله من أهمية وان كان مؤلما جدا بعدم حصوله على السرير:

– ***انت تعرف اليوم اخر موعد انتظار قبل نهاية السنة***
هذي، ولازم الحقه وأحدد أول موعد أدخل فيه
انتظار مواعيد عمليات السنة الجديدة ..

وباهتمام لا يخلو من المبالغة:

– ***طيب، هاه! بشرني ..***

وكانت من أجمل الفرص التي يحتاج اليها الرجل للتحدث عن انجازاته في أشد آلامه واحباطاته في هذا اليوم:

- ***أبشرك! بس صرفولي انتظار الشهرين بثلاثة***
شهور في السنة الجديدة! شفت الظلمة!
والله ظلمه! يعني بتصير جرعات الانتظار بعد كل
تلاته شهور! بالله هذا يصير؟ أنا خلاص! قرّبت
أنجن ..

ولأقطع عليه الطريق كي لا يأخذني في جولة حول الدائري الثاني والثالث في رحلاته الطويلة وكلها في الأحزان أظهرت له حزني وتعاطفي الخاص مقدما وذهبت أقلل من أهمية الأمر بوجود الأمل بالله ولأخفف عنه الصدمة والإحباط قلت:

- ***ياه! تراكل شيء بأمر الله وبيده، وما زاد علينا***
لازم نقابله بالحمد والصبر ..
ويا جاري! عليك بعدها بالدعاء يعجل لك بالسرير!

ودفعت به لأخرجه الى جو من المرح فقلت له ضاحكا:

- ***تدري! انت ليه ما تكثر الدعاء ان الله يسهل لك***
بالسرير الثاني؟
فما عند الله أضمن لك .. اللي عنده ولا اللي عند
الناس!

مؤكد ما كنت أقصده بالسرير هو "شبرية حمل الأموات"! قصدي النعش!

وكنت حينها أتحدث وأنا أفكر وأبحث عن ساتر للاحتماء حال توصل تفكيره للمعنى المقصود، وبالفعل تفكيره كان أسرع ووجه نحوي عصاه بضربة وكانت خاطئة ولله الحمد، ولا شك كانت مقصودة لتحمل التهديد الجاد فقط، وقال وهو يوجهها مرة أخرى مهددا ومتوعدا:

- *تف! هيا تف من فمك! هيا قبل ما أخليهم اليوم*
ينوموك فوق الشبرية ويشيلوك لجهنم!
يللاه! هيا تف ..

فهربت مبتعدا عنه ضاحكا ومعتذرا عن هدفي الخبيث الذي فكرت به وأفهمته بأن هدفي كان من أجل تخليصه وربما تخليص نفسي فبادرته بحملة توجيه أفكاره الى ناحية أخرى وكانت امعانا مني بالسخرية به نظير ازعاجه لي:

- *اكيد تبغى لك حل يا جار! وتود لو أنك اليوم أو*
الساعة هذي تدخل للعمليات وبلا منّة منهم في
المواعيد!
والله! هذا الحل يا جاري عندي وانا ابو هندي!

ليندفع نحوي ليقبل رأسي متوسلا:

- *تكفا! تكفا يا جاري تكفا! وأحب على راسك*
والله اللي تؤمر فيه بأسويه لك .. أطلب
وأنا دفّيع .. لو خمسه ريال!

نظرت اليه قائلا باستغراب واحتقار وانا اضحك من استفحال اللؤم فيه وهذا لم يغضبني فهو من نوع بضاعتي الرخيصة ولكن غيرتي عليها، أي قيمة بضاعتي جعلتني أعاتبه بغيظ:

- *ايش؟ خمسة ريال؟ خمسه؟ من كذا ربي ما يوفقك*
لأنه البخلاء اللي زيك عند الله أبغض البشر، يا
بخيل! يا رزيل!

وعاجلته بشروطي لقبولي بخدمته مظهرا الجدية والصرامة مع الإتقان لدوري ما جعله يصدق هذه المزحة القادمة وقد حادت عن غرض الترفيه المرسوم:

- بس فيه شرط واحد مهم! ولازم تنفذه ولو على
رقبتك! حتى ما يزعلوا مني، ويقولوا إني خربت
عليهم نظام "الانتظار"!
وهو لا قلت لك ولا قلت لي!
إنك تنساني، كأنك ما عرفتني ولا أعرفك! هاه؟

وألتصق بي بتلهف لسماع الطريقة بالمزيد لمعرفة الحل الخرافي:

- أبشر يا جاري! من عيوني، بس الحقني بالسرير!
ابشر يا جاري والله لو ينقزوا قدامي ما أقول لهم
اسمك!

تظاهرت بالطيبة في قبول خدمته ومنها تشجيعه لقبول بقية الشروط:

- طيب، طيب! أنا ما أبغى عيونك المطمشه! بس

الشرط الثـاني بيكون أصعب!

ويبغي رجال بمعنى الكلمة! شجـاع، ويتحمل وجع

ساعة ولا كل ساعة وطول السنة... ويمكن وراها

سنين من المواعيد ..

وما تذكيري له برحلة السنوات الطويلة من الانتظار الا كفيل بأن يجعله يتنازل عن التدقيق في جدية الأمر وربما عن ثروته لو ملك منها شيئا:

- يا شيخ انفذ واتحدى الرجولة نفسها ومن الساعة

هذي، بس خليني ارقـد على سرير في المستشفى!

والله طفشت من كثرة المراجعات وغرف الطواري

وعيادات الدكاترة!

وهنا حاولت كثيرا أن أتكتم وأقاوم الضحك وألجم بوادره في فمي ولكن لا اعرف مدى نجاحي في اللعبة ولا أظنها تحقق سوى سخافة العرض:

- طيب خلاص! بأجيب من البيت سكين وأغرزها

في مكان من بطنك ويكون مكان ما يموت ..

وكأني توقفت لأفكر ثم قلت:

- والا أجيب الشاكوش أحسن! وأرض لك فيه أربعة

أضلاع وكمان الشغل الأضمن ألحق عليها بساق

واحـدة والا ذراع واحدة تكـفي! مع فتحات

صغيرة في الراس، وهذي بس

لزوم نـزول الدم الكثير علشان تحبك المسألة

وقمت بوضع كفي على كتفه بحنان وهمست كشيطان:

- **وبعدها أطلب لك أنا يا حبيبي أحلا سيارة إسعاف**

ويشلوك على كفوف الراحة حتى يوصلوك لباب

الطواري ومنه لأحلى الأسرة ..

وبإشارة الثقة بنجاح المنتج بإبهامي أكملت:

- **وصدقني خلاص! رايح تتنقل من سرير ممتع**

الى السرير الأكثر متعة وتتدلع بين أسرة أقسام

المستشفى ولمدة سنة ..

كنت أتأهب للفرار عن العصا ولكن أدهشني أن الحبيب ظل فاغرا فمه مفكرا في ذهول وكأنه يقلب الأمر في جدية وروعتني قسمات وجهه التي تحمل مشاعر الإعجاب بسحر المعجزة وعبقرية هذا الحل فيما قلت، ولم ينطق بشيء للرد على ما سمع أو لمعرفة مدى الجدية في كلامي، فألغيت فكرة الهرب ورحت أضيف الجديد:

- **ولا يطلعوك إلا بعد ايش؟ بعد سنة ويكونوا فيها**

نفّضوك تمام

وطلعوا منك كل الفطيس والبلاوي وترجع بعدها

للحارة ولحب الرمان وانت ايش؟

ولد! شباب متعافي بجد، وأقوى من ذاك

"المهرقل" اللي كان يكح ويطيح دايخ في محله.

لم أصدق وأنا أنظر اليه وأرى عاصفة من البلادة قد ابتلعته وأصبح متخشبا متحجر النظرات ولدقائق طويلة، فيئست من تجاوبه بالضحك أو من تفهمه للنكتة فاستدرت عنه مدخلا رأسي من حيث أخرجته تحت غطاء محرك الفورد، فليس لدي الآن أفضل من مداعبة هذه العروس الكستنائية، ولا أعرف السبب الذي دعاني للتنصل من عرضي وأرفع صوتي مستهزئا وأنا أقول لها:

- بس يا جار! أنا خايف أسويها لك وأكيد شايفني
أحد ويعرفوا إنها مؤامرة، لكن!
انت شوف لك غيري أو أتصرف بس بعيـد عني
لا توديني في داهيـة!

ومرت دقائق أخرى ورأسي مغمورة تحت كبوت السيارة وهي أطول وقت ليفهم فيها أغبى رجل في العالم هذه المزحة! وكنت انتظر سماع بعض الضحك أو بعض الشتائم ولم يحدث من هذا شيء؟ ورفعت رأسي مستطلعا عن أسباب الصمت المطبق!

قمت بمناورة الانسحاب والالتفاف لأتمكن من رؤيته ومعرفة التطورات، ولكن! هذه الالتفاتة مع الدوران استمرت حتى أصبحت دورة دائرية كاملة مسح فيها بصري جميع المنطقة المحيطة بي وبالسيارة في كل الاتجاهات ولكني لم أجد أي أثر له!

وحين رفعت رأسي لمدى أبعد فاذا بي أراه قطع مسافة منطلقا بأقصى سرعة والهواء رافعا ذيول ثوبه من الخلف وعصاه على كتفه حتى مرق من باب بيته ودون أن يخفف من سرعته ولم يغلق الباب خلفه! ووقفت أقلب الأمر وأنا أقلب رأسي ذات اليمين وذات الشمال فلم أجد سوى الاستغراب والذهول مع صمت الشارع في تلك الظهيرة!

صعقت بما شاهدت! فأعدت نظري على المشاهد السابقة بسطحية وأنا أستبعد مسبقا حدوث أية أمور غير اعتيادية، فحياض الوساوس راكدة!

فابتسمت ثم عدت الى عملي أكرر ضحكات ساخرة لتنحسر مني بعد لحظات وتختفي عن وجهي الابتسامة وأخرج رأسي كالملدوغ؟

فهناك ما عبث بالراكد وعكر تلك الحياض!

فقد كانت المشاهد مازالت معروضة لم تتوقف أثناء سخريتي مع تحليلات سريعة تدور في الخلفية وتراءت لي فيها أن التصرفات التي قام بها أبو سراج غير منطقية والتي انتهت بالانطلاقة الصامتة في ركض سريع نحو البيت؟ ثم كان آخر حوار طلبت فيه أن يبحث عمن ينفذ له الفكرة وأن يذهب بها بعيدا عني؟ ماذا؟

كنت قبلها وخلالها أغفلت الحالة النفسية السيئة التي يمر بها هذا الرجل وطافت بمخيلتي الساعات الطويلة وما يسرد فيها من أنواع المعاناة فشعرت بانقباض شديد في صدري وأنا أستعيد أثار كل ما ذكره من والصدمات المشاكل التي يعيشها، وجرفتني الوساوس ومشاعر القلق لتوصلني للقناعة بأن حالته هذه

تجعل وقوع أبعد المستحيلات أمرا مفروضا منه ويصبح ضمن واقع الأمر المسلم به والمحتمل الحدوث بلا أدنى شك، وهكذا أصبحت في البئر التي حفرتها له في قلق ومخاوف متفاعلة فتساءلت:

- يمكن توافقت فكرتي الغبية أو "النكتة" مع نظام
تفكيره و .. وأقتنع فيها؟ وراح يجري لحب الرمان
تسويها له!
يعني راح ينفذها المجنون!
وربما كان ذلك الجري وبذيك السرعة لبيته يدور
على سكين؟
سكين؟ سكين؟
يمكن شافها أكثر حنان من هرس العظام بالمطرقة!
ايش؟

اسودت الحياض بكثافة بما فيها من أصناف المعكرات، ورأيت بنفسي ما صنعته أنا لنفسي وما سأتسبب به لهذا الأحمق، وما قد يجلبه لي من المتاعب، ثم أخذت تتسع دوائر الظنون وشكوكي بالوساوس:

- ويمكن ما وافقت له الفكرة! ولكنه ركض للبيت
حتى يتصل بطواري الشرطة ويمكن الأمارة حتى
يبلغهم عن تآمري عليه بالإغراء أو الإغواء
لتحريضه على قتل نفسه مستغلا حالته وظروفه

النفسية والصحية المنهارة!؟

ومن هنا انطلقت تحاصرني العبارات والتصورات خلفها في وساوس متصلة ..

قتل نفسه؟ أو حب الرمان؟

يمكن بلاغ؟ الشرطة؟ يمكن الأمارة؟

مع سبق الإصرار والترصد: بالسكين!

دوافع القتل؟

التحريض لقتل نفسه؟ مريض نفسي!

وأخذت تقرع وتسارع ويتردد الصدى من هذه المركبات وتتفاعل بعقلي وتتضخم، حتى بدأت أشعر بسببها أولا بما يشبه الخدر والتقلصات بجلدة الرأس لأنه ليس هناك فروة من الشعر، ثم شعرت بالتنمل في كل بصيلات الشعيرات المنتشرة على جسمي وأن بقية الشعيرات الصامدة في جوانب رأسي والمحيطة بالصلعة تتمدد ذاتيا وتقف طوليا في الهواء وكأنها قررت الإقلاع انطلاقا للرحيل أو الهرب!

وأنا في قلب الحيص بيص، استخلصت نتيجة حتمية أو استنتاج واحد:

- إن كل الاتهامات لها نتائجها اللي ما تسر لا عدو

ولا حبيب! سواء تم القتل أو تقدم بشكوى

فانطلقت الهواجس تبرم بحثا فقط عن الأدلة والقناعات، لأصبح فعلا أنا الأخف عقلا من جميل زلطه، وبلا منازع!

وأخذت أتوجس وأكثر من الالتفات حولي في كل اتجاه، ما إذا كان هناك أي أحد من الشهود علي جريمتي وما إذا هناك حملات اعتقال قادمة من أطراف الأزقة أو مظاهر تربص على امتداد الشارِع وكمين يجري إعداده للتطويق بي حول المنزل والإطباق علي!

ودون أن أشعر بدأت يديَ تغلق غطاء ماكينة العروس ودون أن أنزل ببصري عن مهام التفتيش والتمحيص بعيدا عن مواقع احتمال القدوم لفرق البحث الجنائي عني والهجوم، ثم وبكل قوتي وبالسرعة القصوى تم الإغلاق لأركض فورا لأفتح باب الكستنائية وأقذف بنفسي داخلها وأمسك بالمقود واليد والأخرى ترتجف بينما تبحث عن مدخل المفتاح ولساني يتوسل ويسأل الله راجيا أن تكمل الكستنائية معروفها وأصالتها معي بعد إنقاذها لكرامتي في الأزمات كميكانيكي بأن تنقذ اليوم رقبتي من السياف بإبعادي ما أمكن عن مسرح الجريمة بحجة الغياب! ورحت أغدق عليها عبارات الإعجاب والغزل ما استطعت وأنا أكرر محاولات أدارة المحرك مستعينا بالله، وإذا بها توفي بالوعد "وتتم" المعروف.

وبعد الأقل من دقيقتين لم نترك أنا وهي لنا في الشارِع أي أثر!

سوى الغبار المتصاعد عن الكفرات والدخان الأسود الكثيف الذي نفثه "شكمان" عزيزتي الفورد الكستنائية الحلوة وهذا أيضا أصبح حجاب تمويه أخفانا وأسهم في مغادرتنا الحارة ربما بأمان.

******

تقول الحكاية بأن الرجلين اختفيا عن الأعين ومن ذلك الشارع في ذلك الوقت من الظهيرة، ويمكن بسهولة المعرفة أو التخمين بأسباب هروب صاحب الفورد الكستنائي والعلاقة وببساطه يمكن ربطها بمدى خوفه الذي يمكن تحديده من خلال معرفة المسافة التي قطعها في عشر دقائق فائتة من نقطة انطلاقه على سيارته الفورد الكستنائية.

ولكن! الذي لا يمكن معرفته أو تخمينه ولا تخيله هو سر أو قرار أبو سراج الذي حمله على الركض الى البيت؟

وهل كان الرجل بالفعل أستخدم السكين بنفسه ونفذه كحل للتخلص من مواعيد الانتظار الطويلة؟

ولا يعرف ما إذا كان أستخدم السكين في المكان المناسب أو المميت؟

لأنه في تلك الحال سيفقد حتما فرصته في الحصول على تلك المواعيد العشرة التي كانت سترصد له في بحور ومحيطات السنوات الجديدة!

وربما هو ما يزال يدلي للمسؤولين في غرفة العمليات بالأمارة عن كامل تفاصيل البلاغ وعن المخططات الإجرامية التي كان يدبرها وسعى لتنفيذها فيه هذا الجار المدعو أبو خالد لقتله!

وربما أستغرق كل هذا الوقت الطويل ليتأكد محقق مركز الشرطة من صحة أو جدية الاتهام مع إصرار المدعي على رفع القضية على المدعو أبو خالد!

وفي آخر التعليق! لكن، وللأسف!

والأسف الشديد جدا، تعذرت المعرفة الدقيقة عن وجود أي بلاغ حول الأمر أو أي تفاصيل حول أي نتائج لاحقة لهذا الحدث أو تبعات، لأن السيد جميل زلطه ما زال مختفيا ومنذ دخوله لمنزله في تلك الظهيرة وحتى وقت تحرير هذا هو ما يزال خارج التغطية !!

******

أمومة طفلة

لا تزال بقايا الظهيرة ممتعة ومنعشة في هذا اليوم الربيعي في مدينة الطائف الرائعة الأجواء في كل الفصول، ولا ينغص هذا الجو في هذا المنزل الحديث البناء والجميل سوى الجلبة الصاخبة فيه من كل مكان، من الغرف والمجالس والقاعات حتى من المطبخ، والذي تعصف فيه حالة استنفار شاملة ومستمرة منذ ساعات الضحى، في الطبخ وعلى المواقد والأجهزة وجميع القدور والأطباق والسكاكين والملاعق ولكل صغيرة وكبيرة من السقف حتى أرضيته، ومن دون استثناء لكل أداة مهما كان نوعها أو حجمها، فقد كانت حملة نظافة شرسة لكل محتوياته ولأصغر نقطة فيه مهما بلغت أو تعسر الوصول إليها، وتشرف على هذه الحملة السيدة المتكئة على عصاها منذ ساعات وتتلقى أوامرها الصارمة والدقيقة الخادمتين اللاهثتين في كل مكان بلا توقف ولا كلل وملابسهما تتصبب بالماء والعرق، وتحركهما الأوامر كالريموت، في صوت متحمس ومتشنج وأكثر من يتلقاه تلك "المستسلمة" ذات الجسم الأنثوي المنحوت بتفاصيل مثيرة مع الشفاه الدائمة التورد مع بريق المتألق ودونما أصباغ أو مرطبات أو عقاقير، والتي بعد إعلان رفع الاستنفار لن تشعر بأي رغبة لأي شيء حتى للابتسام في بقية اليوم، ولن تبتسم فيه فعلا إلا متى تحقق لأحد جنبيها بأن ما يلامسه حقا هو سطح فراشها الناعم وقد لا تتحقق لها فرصة

الاستمتاع إذ ستسبقها هجمة النعاس السريعة وهي الأقوى من طاسة عملية التخدير القوية.

في الجانب الخارجي الأمامي من الفلة وفي أحد غرف الملحق والخاصة بالشاب " محمد" كانت ورغم غلقه المحكم لباب الغرفة والنافذة فان زوبعة الصوت التي تنطلق منها تشعر بها أولا باهتزاز جدران الملحق والمبنى من مكبرات الصوت بأنظمة المضخمات ومحدثات التردد من أجهزة الواي فاي وأغاني الام بي، والتي قد تختفي قوتها مع تفجر أصوات صرخات جانبية منعكسة تصحبها مقاطع من اللعن الموجه الى كل شيء وما يتبعه من الردود المتبادلة بين اللاعب محمد العصبي جدا والمتحمس للاعبي فريقه "البرشا" على جهاز "البلاي ستيسشن" ومتحديه أخوه "خالد" المقاتل بكفاح بفريقه "الريال" والمهزوم كالعادة أمام محمد والذي يحاول بيأس الخروج من محيط الهزائم باستمرار

النضال الجاد.

وخارج باب الفلة الداخلي وفي مساحة "الساحة" أمام الملحق كانت هناك زوبعة صوتية اخرى تتصاعد في مقاطع من الهتافات الجماهيرية والتعليق الحماسي الرياضي على أحداث المباراة الوهمية المحتدمة بين "فيصل" بفريق الاتحاد ومع نفسه في الفريق المقابل الهلال! وبذلك يكون قائدا لاثنين وعشرين لاعبا وحكما ومعلقا ناقل للمباراة وكذلك هو جمهور يمتلئ بالحماس في مساندته للفريقين، وجميعهم متواجدون وفي نفس الوقت في الملعب الدولي الكبير

الممتد في راسه ويشاهد بعينيه فقط يغطي بحجمه حوش الفلة، وقد بدأ اللعب بين الفريقين منذ فترة كما ذكر في تعليقه على أحداث المباراة في الملعب والتي بدأت بتناول الكرة منه شخصيا من الدولي "المنتشري" وأرسلها " للمولد" وخطفها اللاعب المنافس "الشلهوب" ليسترجعها هو شخصيا ويوجهها للدولي "محمد نور" الذي يسلمها مباشرة للمهاجم "الهزازي" في موقع مواجه لحارس مرمى الهلال الدولي "الدعيع" ولكنه – أي فيصل– يستقبلها ويرسلها مسجلا هدفه الدولي الخامس والأربعين في "شوتة" خارقة تخترق الشبكة ويهتز منها جدار السور المسكين وكل المبنى، والمرمي والحارس متواجد في جميع الجدران وعلى جميع أبواب الفلة والنوافذ ويجده متى خرجت الكرة للشارع أيضا على أبواب الجيران وربما جميع جدران الشارع!

أما في صالة الجلوس في الدور الأرضي فما زال صدى صوت بكاء "ريناد" يملأ الصالة بعد أن صفعها حبيبها "أيمن" وكان قد هجرها وفقط بعد أسبوعين من حبه الجارف المخلص، وكانت تضحيتها له بكل غال من أجل حبه وعينيه الخضراء، ولكنها الآن لحسن الحظ أفاقت من محاولة الانتحار الفاشلة وتجلس مبتسمة تسترجع قصة حبها إلا أن دموع "حصة" أبت التوقف! ومنذ بدأ هذا المسلسل التركي وقبل أكثر من ساعة ونصف!

وكان حدث في واحدة من الغرف بالدور العلوي أن قذف السيد "راضي" بالجريدة ثم ألحق بعدها بكتابه المفضل بعد أن يئس تماما من القدرة على التركيز والفهم بسبب الزوابع والضجيج الذي دأب يهز بعنف كل ما حوله مع

جدران الغرفة، ليضع رأسه بين كفيه للحظات ويقفز مهرولا ليغلق عليه بابها بإحكام معززا ببعض الوسائد على عقب الباب ويساند زجاج النوافذ بالستائر الثقيلة ولكنه لم يجد بدا من وضع كاتما الصوت الجلدي والصوفي على أذنيه ويدفن نفسه تحت الطبقات المزدوجة للبطانية، عله يغنم بفرصته الضئيلة بالنوم في الدقائق المتبقية قبل العودة لمكتبه بعد صلاة العصر!

وبينما أصوات الرحى والمعمعة تدوي من كل مكان في أرجاء الفلة كانت جميع هذه الأصوات تتصاعد في الجو بصوت واحد، تختلط فيه أصوات الحناجر والأواني أو الحلل والطناجر ومحتدمة مع الهتافات وصراخ الصراع الكروي في البلاي ستيشن وعلى أرض ملعب فيصل وما فيه من كل الضربات المباشرة والغير مباشرة، ولعلعة أصوات الجماهير وأنواع الأجهزة وفيها صدى القنوات ومضخمات النغمات من كل نوع لتتناغم جميعها وتصعد جميعا في صوت واحد، يسمعه العابرون في شارع الحارة في هدير صوتي متماسك وغير محدد المعالم، وفي هذا الزخم والحين كان يحدث في ذلك الجو الشنيع شيئا آخر! هو مختلف ومختلف جدا، إذ كان يتواجد في نفس الوقت وفي ركن هادئ في أحد أصغر الغرف في تلك "الفلة" الثائرة، يعيش شخص لم يسمع أبدا بتلك الأصوات أو يعرف بوجودها ولا بحدوثها ومصادرها أو أي شيء عن محدثيها في امتداد ذلك الوقت، وكان يعيش في سلام وهدوء تام وفي سكون مطبق! أن الفلة بكامل أحداثها كانت "خارج التغطية"!

إنها رانية! صاحبة الخمس فصول من الربيع اليانع، والتي لم تشعر بوجود أي ساكن معها في هذه الفلة عداها وابنتيها "ريم" و "ايلاف"!

حتى أن ريما شكت الى أمها رانية شقاوة أختها "ايلاف" وأنها سكبت العصير على فستانها الجديد، ولكن الأم لم تقم بمعاقبتها بل قبلتهما معا، وقالت لهما بحزم وبصوتها الطفولي العذب:

- ***يللاه يا بنات! خلاص، هيا وقت النوم !***
- ***يللاه! بدلو فساتينكم حتى تصحون بدري للمدرسة!***

وأنامت كل واحدة منهما على وسادة من لفائف مناديل الورق "الكلينكس"، ثم نامت بجوارهما على فراشها، وما هي إلا لحظات حتى وجدتهما أمامها في الحلم! وأخذت تجهزهما بهمة وبكل عناية للذهاب الى المدرسة!

*****

المرسيدس السوداء

في مكان غير بعيد عن البيت الذي نعيش فيه ولكنه واقع في داخل حارتنا الشعبية القديمة الفقيرة وبين بيوتها الملتحمة والمتقاربة بأزقتها وبمشاعر من يسكن فيها قد صدحت وارتفعت وامتزجت أصوات تكاد لا تميزها في الا كضوضاء دون التركيز في نوع محدد لشخص بعينه. فتظن بأن الجميع يتحدث حتى المارة في كتلة ضجيج من القهوة وزبائنها والقهوجية وحول دكاكينها، ومن محلات بيع الخضار والورش الصغيرة التي لا تحصر.

حينها كان يسير بخطوات سريعة ويتقدمه على الجانبين بخطوة واحدة أو اثنتين نفر خاص من رجاله وخلفه عدد آخر من تابعيه وبنفس السرعة وبمسافات منتظمة، والمؤكد بأن الرجل الغامض ودون أدنى شك على درجة كبيرة من الأهمية، فكانت خطواته ثابتة ونظراته لا تتجاوز المتر أمام قدميه ولم ترتفع أبدا للنظر في جمهرة من أهل الحارة تتراكض حولهم بفضول ودهشة بينما كان يكثر التفاتات قصيرة وهو يتحدث باستمرار الى رجلين عن يمينه وعن يساره ودون أن ينظر اليهما، والملفت أن جميعهم كانوا متشابهين تقريبا بالضخامة والشكل مع شدة الأناقة في الملبس وفي الحماس!

إنها المرة الأولى التي تخترق فيها أزقة الحارة سيارة مرسيدس فاخرة، ويشاهد نزول شخصيات مثيرة منها وتسير أقدامهم على ترابها وعبر غبار الزقاق وهم

يرتدون ملابس صوفية فاخرة بألوان داكنة وعلى أكتافهم عباءات عربية سوداء ومذهبة من نوع "البشت الملكي الفاخر".

شقوا الزقاق بنظاراتهم السوداء وهو يشكلون في مسيرهم تنظيم ثابت في شكل "بوغ بشري" سار في داخله الرجل المهم حتى وهو يخطو أول عتبة خارج مسجد الحارة الكبير، ووقف لثواني داخل البوغ العازل قبل أن يرفع رأسه لينظر للأمام لأول مرة ودون أي التفاتة لأي جهة أخرى ومرق البوغ بسرعة داخل المسجد.

كان حقا متلألئا، كالدرة أو ألماسة متوهجة، بملابسه المميزة عن البقية وكانت ثيابا ناصعة البياض وبنفس اللون أحاط بها "البشت الملكي" بحواشيه العريضة اللامعة بالمطرزات الذهبية البراقة حتى لا تكاد تميز معالم وجهه الشديد البياض أيضا عما يحيط به وخلال الغترة البيضاء ليؤلف معها جميعا هالة بيضاء كبيرة مبهرة البريق لولا العقال ونظارته السوداء، التي كانت تحمي وتخفي عينيه وخطا شاربيه الفاحم السواد، وكأنه تذكر مالهما من أهمية ومهام قادمة فكان بين لحظة وأخرى يربت عليهما بطرف سبابة يده اليسرى ويواسيهما ويهذبهما بينما ترك لبقية الأصابع المهام التالية في إعدادها بالتنسيق مع الشفتين "والأشداق" أو الوجنتين للقيام بمهام خاصة قادمة في توزيع الابتسامات في أماكن آخري بعيدة عن هذا الزقاق، أما مهام اليد الأخرى فواجباتها الدائمة بالحرص على المتابعة وباستمرار بالشد للقميص وإنزاله أو منعه من الانحسار زحفا للأعلى عن سطح الكرش البارزة، وبالتالي الحد من تكتله للأعلى حول

الصدر وضبطه للتقليل من الارتفاع الفاحش والفاضح قدر الامكان وإبقاء الثوب في الوضع المناسب المبرز للرشاقة، ولا يمكن أن تغفل عن واجبها حتى أثناء قيامها بواجب استقبال الزوار والمحبين مهما كثرت أعدادهم.

وعند خروجه من باب المسجد كان يسير من حوله في نفس اللحظات رجال الحماية للمقدمة وتمكنا بنجاح من فرض زيادة مساحة العزل على الجانبين والخلف بمد كل ذراع لتشتبك مع من خلفه أو أمامه ولأقصى مدى وفي كل الجوانب وهم يصدرون همهمة مخيفة وبكلمات غير مفهومة! وما أن توقف السائق بالسيارة "المرسيدس السوداء اللامعة" بمحاذات آخر عتبات المسجد حتى انطلق نحوها البوغ البشري الذي ينفرج برجلين يسرعان في المقدمة للوقوف عند الباب الأمامي والخلفي ويفتحا الأبواب بينما أنتشر الآخرون للتمركز في كل الجوانب مع مد كلا الذراعين هذه المرة لتوسيع منطقة العزل والحماية حول المرسيدس مع تصاعد طبقة الهمهمة واستمرار الهدير الغير مفهوم وهم يزفون المرسيدس حتى نهاية الزقاق ويختفي كل شيء ليعود الزقاق الى ما كان ويبقى كما كان.

كل شيء حدث بسرعة منذ وطء المرسيدس تربة الزقاق الى أن غادره داخل بوغ الحماية ولكن هناك تفاصيل حدثت بنفس السرعة لم تلاحظ أو تعرف خلال تلك الحركة السريعة، ولكن بإبطاء الحركة أثناء الخروج من المسجد إذ أصبح رجال الحماية الخلفيين هم من أصبحوا في المقدمة وبلمح البصر شكلا بناء البوغ البشري من جديد وانطلقوا به وفي داخله الرجل المهم وليتم في

الثواني التالية التحام كامل لرأس "الكبسولة" مع باب المرسيدس السوداء اللامعة وبهذا اكتملت المهام بالنجاح التام بعزل وتوارى الرجل المهم في داخل سيارته المرسيدس السوداء اللامعة وأختفى خلف الزجاج "المظلل" والشديد العزل، ولكن أقسم نفر تمكن من سرقة لمحات سريعة منه من خلال الزجاج المظلم وقال في سعادة غامرة بأنه رآه متألقا كالبدر في سماء ليلة شتوية صافية، ولسوء حظ بقية أهل الزقاق وهم من – عشقهم النحس– كعشق التعس لهم ولأهلهم من قبل، فقد حرص على أن يرفلوا ويتمرغوا بالمزيد من النحاسة والتعاسة بان جعلهم يحظون بعدم التمكن من رؤية ذلك الرجل المهم وكانه "المنتظر"! بالرغم من أنه سار بينهم في زقاق الحارة وتجاوز بالقرب منهم وهو يتوهج متهاديا داخل البوغ البشري السميك والشديد المناعة ولم تتهيأ لهم الرؤية له وهو قد غطس في عمق المرسيدس السوداء اللامعة بزجاجها الواقي من النظر وعن الفضول ولم يستمتعوا بمشاهدته وهو يتألق داخلها بينما تنطلق به منهم وعنهم وعن حارتهم بسرعة السهم.

قيل إنه حين توقف الرجل المهم عند أول أعتاب المسجد كان هذا البعض المنحوس يجلس منتظرا في الجانب المعزول الذي كان عن يمينه وحيث جلست فيه تلك المرأة السيئة الحظ بعباءتها النظيفة وان كانت متهرئة جدا من القدم وفي حجرها رضيعة، وقد وضعت لها في المرضعة محلولا أسود؟ سيكون حسنا إن كان منتميا لأحد فصائل الشاي!

بينما تلتصق بالأم طفلتها الأخرى وكانت تجاهد في حجب أو إخفاء نفسها عن عيون الناس بإغماض عينيها، وتحاول بكل وسيلة أن تواري نظراتها عن الآخرين! ربما حرجا بسبب جلوسها أمام هذه الحشود وفي هذا المكان أو خجلا من رؤيتهم لها وهي ترتدي تلك الثياب الممزقة!

وهي كطفلة تحب أن تكون دوما جميلة! وأن لا يراها الناس إلا وهي جميلة!

ولكنها والحق يقال: أنها لم تكن عارية أبدا من الثياب تماما، ومطلقا!

وقيل أيضا أنه كان في الجانب المعزول من الجهة الأخرى شيخ كفيف، يقعد على الأرض وعصاه الغليظة الى جواره، وقد كسا الشعر الناصع جميع وجهه في كل مكان، لربما لم يجد حلاقا مغامرا يقبل به زبونا في محله الأنيق، ولا يوجد ذاك الجريء الذي يتجاسر ويتهور بلمس شعره القذر ليهذبه!

وربما أنه لم يجد أنفع من تبديد ثروة ثمن الحلاقة إلا في ملء بطون عدد من الأطفال بالزاد! من يدري؟

ربما كان فعلا يسد جوعهم بهذا الثمن لعشرة أيام متتالية وبخبز ساخن وطازج.

وهناك منحوس آخر لم تسعد عيناه برؤية الرجل الهام مع أنه كان يقف غير بعيد عنه وعلى مسافة قصيرة جدا، وللأسف كان أخرج تماما عن التغطية!

مع أنه رجل نظيف جدا وحسن الملبس! وكان يقف وهو يكاد يسقط من إحساسه بالهوان ويده تحمل ورقة، ولم يعرف أحد حتى الآن إنها كانت فاتورة كهرباء ثقيلة، أطفأت كل إحساس بالسعادة في بيته، أو ربما هي أمر تنفيذي رسمي بإخلاء المسكن، لثبوت عدم قدرته على سداد المتأخرات.

وأيضا لم يتنبه أحد بأنه غادر المكان بحسرة أنه لم يحظ برؤية وهج صاحب "المرسيدس السوداء اللامعة"!

وانه حين عزم على المسير أنزل من يده رجله الخشبية ليثبتها ويمشي عليها!

لم يفطن أي أحد انه كان يحملها معه طوال الوقت!

وللأسف! انه ودوما يكون سوء الحظ مفصلا على هؤلاء وأمثالهم، وهم كالعادة لم يكافحوا ويسعوا لرؤية الأضواء الجميلة المتوهجة حول الرجل المهم، لأنهم بكل بساطة لا يستحقون ذلك!

وهم لن يتمكنوا من رؤيته أبدا وهو لا يمكن ولن يتمكن من رؤيتهم!

لأنهم ودائما سيكونون بالنسبة له خارج التغطية!

*****

جدتي أم الشهداء

رأيتها!

جدتي! أم الشهداء!

تلك كنيتها، ولكن لست أدري هل كانت رؤيا حق؟ أم أضغاث أحلام؟

رأيتها صبية نضرة مكحلة العينين، وتتراقص الفتنة بحاجبيها وسحر الشرق يتبسم بشفتيها وعبقه يفوح والخجل يلوح لهيبا في سمرة خديها، وعلى كتفيها عباءتها المنقوشة بالقصب الذهبي والفضي وبالحرير، وكانت تسير بغنج في حديقتها الصغيرة، تحوم كنحلة بين شجيرات باسقة الأزهار، وتتهادى بخطوات حالمة وفي كفها باقة ومن كل صنف وردة أو زهرة متوسطية متفتحة في جميع تمازج ألوان الطيف، وكانت تضمها لصدرها بحنان ثم ترتفع لتشم عطورها فتستسلم خدرا بمتعة أريجها الفواح.

ثم رأيتها تدخل إلى كوخها المتواضع، كوخ توارثه الأجداد، بدا عتيقا في ظاهره، وأطلق الباب صريرا حنونا حين فتحته فاندفع إليها يحتضنها وعانقها بشوق ما أحترق في مبخرتها انتظارا لها على جمرات الأشواق، وتحت سقف الكوخ دفء الحب ينتشر كعبير الشرق في كل مكان وكل الزوايا، واستقبلتها الصالة الصغيرة المتوسطة بالطيب وروائح العطور فاختلطت مع ما تحمله من ورد وزهور فأنعشت روحها وراحت ترقص!

تراقص مع من أبقته مخلدا في أعماقها وجسدته مخيلتها ليتحرك معها ويضحك ويبتسم وكأنه من لحم ودم، ولم تعد روحها مثقلة، وتلاشت عنها متاعب كل لحظة انتظار بالأمل وبعناء الأشواق لأهلها وحنينها لكل الجيران ولجميع أهل الحقول فلم يتبق فيها سوى السرور وسعادة القلب.

وظلت تحوم وبصرها يجول وترى بعينيها كنوز الأجداد في كل مكان من الكوخ، وكما تركوها إرثا وأمانة قيمة، وكل تحفة مازالت حيث وضعت أول مرة وما تزال تشاهد بريقها يتألق في متحف كوخها الصغير، فجميع ما على جدرانه وفوق السجاد وعلى أرضيته ويتدلى من السقف هو بهيج، وفي غاية الأناقة وفي دقة الاختيار وبالترتيب المتناسق لمحتواه والمناسب لعظمة المكان وعراقته مع ما تطلبت له العصمة في كل الأزمان.

ثم اتجهت راقصة بهدوء إلى حيث حجرتها وما أن فتحت بابها حتى شع بريق عينيها بالسعادة وأخذها الحماس كفراشة مغرمة تهيم بغريزة البحث عن العشيق وليس الرحيق، وراحت توزع الابتسامات المشرقة وما يفيض منها من عواطف ملتهبة على كل ما تلمسه أناملها الرقيقة وترسل اليه بأطراف البنان قبلات خاصة من شفتيها، ثم أخرجت منديلها الأحمر وأخذت تمسح بطرفه وبوداعة المنمنمات الصغيرة وبراويز الصور الذهبية وذلك الشمعدان الفضّي الذي توسط المنضدة المستديرة في موضع القلب من الحجرة، فإذا هو مصقول لامع يكاد يضيء ببريقه الغرفة كما لو أوقدت الشموع، ثم مالت إلى الرف الصغير تحت المرآة وراحت تنظر ما وضع فوقه من قوارير ومنمنمات خزفيات صغيرة مختلفة

الأحجام والألوان وكمها ما حوى عطورا وزيوتا ودهونا عطرية، فوضعت من بعضها مسحة على وجنتيها.

فهي تحب أن تقتني كل ما كان جميلا وصغير الحجم وقد احتفظت بالكثير من أدق وأرق تلك الأشياء في غرفتها، ووزعتها بعناية وتناغم مع ما يجاورها وما حولها حتى أكتمل المتحف، وهتف بالروعة معبرا عن

شخصها ولمساتها وعما يفيض به قلبها العامر بالعواطف

وبرقة الأحاسيس.

وأخذت تحمل بحنان كل قطعة بين راحتيها وتقربها لتلامس وجنتها لتمدها بدفء الحب المتأجج، وتطبع عليها بشفتيها قبلات اشتياقها بينما تهمس لها بأمانيها وبأحلام من طفولتها، ثم وبعد أن ترقص معها للحظات تعيدها إلى مهجعها بهدوء وعناية لتحمل محظوظة أخرى.

إن ذكرياتها بمساحة الحديقة وكل أرجاء الكوخ ومتحفه مع غرفتها الصغيرة، وفي كل حبة رمل من الأرض وفي الحيطان والأسقف، كلها، وكل الأشياء عزيزة على قلبها.

ولم تكلّ أقدامها وهي تخطو راقصة مع كل منمنمة وأيقونة وبدون توقف، وتردد وتعيد بصوت رخيم أنشودة كانت ومازالت ترددها كل يوم وكل حين ومنذ الصبا، ربما كانت بمجمل حروفها تتحدث عن شوقها لحبيب أو قريب، ولكن كل ما حولها يظل يعزف لها اللحن ويشاركها الغناء، وبسعادة ويزيد من حماسها.

وبين فينة وأخرى كانت تنجذب مسرعة إلى النافذة المغلقة وتُلْصق أذنها وتصيخ مرهفة، وتشحذ السمع!

عله يصدق هذه المرة في وعده!

هذا ما كان يراودها من الهواجس والأماني، منذ عقود، والواقع يظل حتى الساعة يلقي إليها بظهره.

فيطول انتظارها، وتعود كسيرة تقضم أطراف أظافرها خجلا وعلى وجهها مسحة من الحزن واليأس!

وسرعان ما تستبدلها بابتسامة ساخرة، فهي تعودت هذا الواقع في كل أيام ماضيها، وتدرك أنها أصبحت ألعوبة للهواجس المناكفة، وهي تكرر عليها لعبة الخداع ككل يوم.

وكما تكررت بي الرؤى حتى كانت رؤيا هذا اليوم، بعد أن ولجت جالبة باقة الأزهار كالمعتاد مع لحظات الشروق!

فقد رأيتها تلتصق إلى الباب من داخل الكوخ وبجميع جسمها، وبالهمة والتحفز المخزونة في أعماقها، وتصيخ بجميع حواسها تستمع لوقع الخطوات المقبلة وأصبحت حقا.

فالحق دائما يظهر كالشروق بالنور، أو تحت الأضواء.

وبدأت برقصاتها، وأخذت خطوات رقصها تتسارع مع نبضات قلبها، ومع سرعة وقع الخطى القادمة.

وتابعت الرقص، تدور كنحلة، ترقص وتحوم ..

وتحوم، ولكن...؟

أخذ إيقاع الرقص بالتثاقل، وكأن إيقاع الخطوات أيضا أخذ يزداد بطئاً، حتى ...

توقفت! وتوقف كل شيء تماما!

توقفت آخر خطوة للقادم قبل عتبة باب الكوخ ببضع خطوات، وفي هذه اللحظة انهارت على الأرض، جاثية على ركبتيها، تلهث أنفاسها ودقات قلبها تخفق وتبتهل:

- **أرجوك! لا تتردد!**

أدخل! ولا تستأذن.

اقتحم عليّ الباب .. حطم كل الأبواب!

بينما يمر الوقت بالثواني والساعات كالعقود، فإذا أعماقها تصرخ جزعا وهلعا!

إنها تسمع وقع خطواته من جديد وقد بدأت قوية جدا! ولكن!

هذه المرة تسارعها مرتدا على العقبين، مبتعدة!

وأخذت في الابتعاد، وهي ما تزال تسمع صوت الخطوات يخفت، ويخفت في إذنيها حتى سمعت صمت الخطى ..

أختفي تماما مع صفير الريح التي بدأت تعلن عن قدومها من البعيد.

ولكأني كنت أرى كل ذلك يحدث بينما أخذت معالم الهرَم عليها تخطو متزامنة مع كل خطوة كانت تبتعد بالقادم!

كنت أرى تراكم التجاعيد على وجهها، وكفيها وذراعيها، ثم كل عضو في جسدها!

كانت معاول الشيخوخة تحفر وتنخر بسرعة وبهمة!

وعند آخر خطوةٍ اختفت بالقادم .. الذي لا يـأتي .. كان قد أتمّ السوس نخر آخر عظمة فيها كانت متبقية من سائر كل الجسد!

فانزوت الجدّة العجوز في زاوية بالكوخ!

****

وتوالت الأيام، والعفاريت تلهو بها، توهِمُها بمقدمه مقبلا من البعيد، وتسمعها الطبول والأجراس والأبواق والزغاريد!

فتتحامل على نفسها لتنتصب بحدبتها للنظر من خلال بقايا ستائر بنافذتها، وقد نسجت فوقها العناكب بديلا عن ستائرها!

فترنو بجفنيها المتقرحين إلى الأفق البعيد حيث رأته آخر مرة راحلا...

وأمسى بعد ذلك هناك ..

وربما للأبد!

كان هذا منذ عاد ذات يوم وجثم هناك! كشبح أخرس، غائر بصمته خلف التلال، وان كان يبدو ما خلفها ملتهب دائما إلا أنه لا يأتي منها أي ضياء أبدا.

وتمتمت بآخر أمانيها وبآخر دعاء!

فعسى أن يتأجج الأفق بالحريق، ويزحف بلهبه، ويلتهِم كل الأشواك التي تعيق أو تسد الطريق، ويصهر المتاريس ويقوض السدود ويسقط الصخور، ولكن!

انتظارها ظل وما زال يطول!

ولا يظهر لها سوى فجر ومن خلفه أفق جريح ..

مخضب بالدماء!

فتعود إلى حيث زاويتها.

تلعق المرار، وتتلمظ بشظايا يأس، تحرقها.

ثم ورأيتها أخيرا! وكانت لآخر مرة.

كانت في زاويتها، لم تعد لها أقدام تحملها، وقد جمد ماء عينيها، وانحسرت بالجفاف موارد الدم إلى يديها وساقيها فاكتست بشرتها يباسا من العوز والظمأ.

ثم أصبحت هي نفس الرؤى وبانتظام، ولا أراها إلا تولول وتلطم خديها وهي تُهرِّف.

وسمعتها تقول وربما هي آخر الكلمات التي تعيها:

- **لأكثر من نصف المئة خريف؟ وأنا أنتظر!**
- **أيها العاق! أيها الجاحد ...**
- **أيها الـ ...**

وتنسى في ذهولها ماذا تريد أن تقول ولمن تريد القول، وتعود من جديد إلى غفوة ذهولها.

ثم أصبحت لا أرى شيئا منها، إلا كوخها البائس الصغير، وأمام بابه شجرة زيتون يابسة تتوسط ما كان حديقتها ولم يتبق فيها سوى زهرة بنفسج، متيبسة!

كانت تريدهما علامات لبيتها، وشهودها على الحكاية...ولكن!

في ذات ليلة مظلمة، هبت ريح غريبة، هدمت، واجتثت، ودفنت كل المعالم والبقايا.

وزحفت على كل شيء حتى اختفت جميع الألوان، عدا كل لون معتم قاتم كالظلمة!

وإذا بي أفيق مرعوبا من نومي!

وتوارت كل بقايا الرؤيا

منذ ذلك حتى الآن! أكاد لا أذكر شيئا!

ولا أكاد أعرف أي شيء عن تفاصيل هذه الرؤيا، أم هي فقط كابوس؟

إذا! فعلى ماذا اليوم أنسج الرواية؟

وكيف أصور أو أكمل نهاية للحكاية؟

فأطفال اليوم! والغد! لا تستهويهم الأساطير.

فعصرهم لم ولن يخفي عنهم أي سر صغير أو كبير!

وأدركت أخيرا أني في مأزق، وخطير!

ومع هذا اكتشفت بأني مثل الكثيرين! ومثلي كثير وأنه ما زال هناك مثلي أيضا ممن ينامون ويحلمون وهم ...واقفون.

****

سعوديموزين

بعد أن يئس من رفع يده للعشرات من سيارات "التاكسي" ولأكثر من عشرات المرات آملا بوقوف إحداها بينما مر أغلبها من أمامه خالية من الركاب وبسرعات خارقة ولا يجد تفسيرا إلا أن يسكب خلفها جرادلا من شتائم الغضب وفوقها أخرى مما يوقد لهيب اللعنات على سائقيها لتحدث فيه "علميا" البرودة في داخله، أي "تبرد على قلبه"، لأن كل دقيقة من الانتظار تمرق فيها أعداد من التاكسي كافية لزيادة توتره وضغطه الى أقصى معدلات الغضب بعد أن تجاوز مؤشر ساعته التاسعة والنصف صباحا! وهذا يعني بأن الموظف سعود بن عبد الله أصبح متأخرا جدا عن الدوام وللمرة العاشرة في هذا الشهر فقط عدا أيام الغياب، وبالرجوع الى ما قبلها من عشرات مضاعفة من الإنذارات والتعهدات المشددة مع الاستقطاعات المخفضة والمشددة والتي أصبحت كالمهووسة به منذ أشترى تلك الاستراحة الصغيرة قبل أقل من ستة أشهر وتبعد عن منزله مسيرة ثلاث ساعات متواصلة وفي الظروف الحسنة ذهابا فقط وهذا يعتمد على انخفاض الزحام في الدائري الجنوبي مع طريق الملك فهد، ولهذا قرر للتو أن يقفز أمام أي سيارة أجرة قادمة والركوب فيها مهما كلف الأمر، أي بالخناق أو "بالطِقاق"!

ولكن السيارة التالية كادت تدهسه فعلا وهي متجهة نحوه كزبون ولم ينتظرها للتوقف بجواره بهدوء، وأخيرا تحرك بحذر من على "الكبوت" وأنطلق راكضا من أمامها نحو باب التاكسي تحسبا لأي محاولة هرب وقفز فورا الى جوفها غير مصدق، وقال للسائق وهو يلهث من الضغط والإجهاد وفرحا بنجاح مغامرته الانتحارية:

- *معليش يا الشيخ! إيه الله يجزاك بالخير تكفا أبي*

وزارة الصحة في شارع الوزارات، بسرعة!

بسرعة قد ما تقدر وباللي تبي!

نظر اليه السائق مبتسما، ثم وفي هدوء أنطلق يغوص في زحام الذروة الصباحية، ولاحظ سعود أن السائق الهادئ المبتسم شديد الوسامة والأناقة وهو يرتدي ملابسه السعودية الفاخرة جدا مع رائحة العطور الفواحة وفوق رأسه غترة الشماغ وتوقعها من النوع غير الرخيص بلا شك وقد أعتني بكيّها في "صبة المرزاب" وفي تناسق مع وضع العقال على طريقة موظفي الدولة الإداريين "والواصلين منهم"، وكان بالفعل وسيما ويبدو أنه يبالغ في الحرص على تفريش أسنانه الناصعة كاللؤلؤ مع الحلاقة كل صباح، فقال سعود في نفسه "لاشك بأن نظارته الشمسية الثمينة تخفي أيضا عيونا جميلة كبقية ملامحه كما خمن بأنه موظف كبير ومميز وربما هو مقتدر وصاحب مصالح تجارية أخرى وما هذا التاكسي إلا لذر الغبار في العيون أو للمتعة ويتسلى أحيانا بنقل الحجارة من على الطريق "أمثاله"، لكسب الأجر والثواب فيهم!

ثم نهر نفسه عن التفتيش بعيون الحسد أو الحقد في شؤون الناس وأحوالهم وأن الأجدر به أن يتفكر في مصيره الأسود القادم مع مدير القسم!

وقال في نفسه:

- ***المهم! خليني أفك عن نفسي الضغط اللي بيطلع***
من خشمي وعيوني! وانا قدامي مثلها شحنات
جديدة وقوية من التهزيء وطاقم التعهدات
والخصميات ولو أخلي ذي مع ذيك أكيد
"أبنجلط" على الصبح!

وفي اقتناع قرر المواجهة:

- ***خلني أفرطها مع ذا "الجنتلمان" السعودي الشهم***
وما همني من يكون والمهم أفش "قرب" الضغط،
وايش عليَ من ثقافته ومركزه، كني ما دريت!

وغاص بظهره في المرتبة وهو يضع رجلا فوق أخرى وبطرف شماغه المتيبس بالنشأ نظف عدستي النظارة الشمسية "اللقطة الثمينة" المصطادة من حراج بن قاسم استعدادا للبدء بجولاته واستعراضاته اللسانية المعتادة والخبير بها بالممارسة في كل مجال ومكان وفي أي حال:

- ***تصدق يا طويل العمر إن لي أكثر من ساعتين***
وربع وذول "البنقال" يشوّتون من جنبي مثل
"الفشق! " طايرين، الله لا يبارك فيمن جابهم!

وكأن السائق الجنتل ألتفت ونظر اليه مبتسما وتابع الزحام ولم يعلق، فأكمل سعود بحماس:

- *يا خي ما يخلونها كلها "سعودة " صح وللي مثلك و"شرواك"! ويريحون الناس ونفتك من ذولا الرقيعية والرقاعة ومن كل مشاكلهم!*

كان يتوقع هذه المرة مشاركة فعلية من "الجنتلمان" والذي شعر بمحدثه وألتفت نحوه بلباقة أكتفى منها سعود بن عبد الله برؤية ابتسامة أسنانه الناصعة البياض والتي شعر منها بمغص بأمعائه وهي تذكره بسواد أسنانه وما فيها من كهوف السوس المنخورة ببراعة، فسارع الى تخفيض توتره بالاسترسال في الحديث ودون انتظار لأي مشاركات منه كالتي لا تسر ولا تخفف من ضغط:

- *شوف يا طويل العمر! امسك الدرب اللي يريحك بس انه يوصلني بأسرع وقت، وما ني مكاسرك لأني ما أقصر، وتستاهل الثلاثين وزود.*

وشعر بأنه سيورط نفسه فسارع يستدرك بمخرج ذكي منحرف لاتجاه آخر ينشد به ربما السلامة:

- *ايه نعم! وزود عليها حبة راس! تستأهل يا ولد العم والظاهر اليوم إني بأخبصها مع ريس القسم! ويمكن معاه* المدير! والله يعين ...

وفجأة هتف بسعادة وبصفقة قوية من يديه:

- *إلا افتكرت! البارح "الهلال" أكيد فايز! لأجلي*
شفت سيارات وفوضى الشباب والأعلام الزرق
والصراخ وأنا رايح الاستراحة،
بس ملدري فاز على من؟

أنتظر للحظة مصغيا وحين لم يجد جوابا عاد بظهره الى المقعد ولكن أعماقه ممتلئة بالسرور من تلك المناسبة:

- *لكن! الله يجزاهم بالخير! تدري ليه؟ والا بلاش*

وكالعادة ألتفت السائق نحوه مبتسما مع انحناءة خفيفة بالرأس معبرا عن سروره أو تفهمه ومساندته لكل ما يقال وعللها ابو عبد الله بعدم معرفته لا جابة السؤال أو الاجابة، ولكن سعود تذكر بأنه كان يجب إلا ينتظر الإجابات من أحد حتى وان أخطأ بتوجيه السؤال لهم، فأكمل دون توقف للتكفير عن غلطته:

- *هالحين! وعلى أو ل ما أوصل أبدخل بريس*
القسم جنب! وألخمه بالمباركات وبزحمة الملعب
وكثرة الجمهور والدوخة والتعب من التشجيع.
وبعدها أدخل به على طريق خريص! وما
أدراك ما زحام "خريص"! ثم أفحط به مع
المفحطين، حتى أوصل به لقسم الحوادث ...

رقصت رأسه من السعادة وهو يقول:

- *وأكيد! اليوم بنسلم من الإنذارات والخصميات!*

ويجعل الهلال يلعب ويفوز كل ليلة لو مع الحواري

ولأنه لم يعد ينتظر إجابات من السيد السائق الأنيق أو لم يعد راغبا بأي متحدث غيره، ومن فرط سعادته ود لو يتحدث طوال اليوم بلا توقف:

- *والسر! إني الله يسلمك نصبت على الريس السنة*
اللي راحت! وقلت له إني قلبت هلالي! وكانوا مثل
أمس فازوا بالكأس وأنا كنت غايب عن الشغل
قبلها يومين وعطاني زيادة يومين أجازه!

وبثقة بمهارته وبالموقف أكمل:

- *لا والله إلا سلمنا! الله يديم لنا خبال بعض الناس*
ويسلمهم ...

وبفرحة عثوره على الحل الجهنمي ألتفت الى السائق السعودي ستزن، "الجنتل"، الأنيق، والوسيم ولا مانع لدى سعود بن عبد الله الآن من قبول أي مداخلات أو مشاركات وقد أخرج كما توقع أكثر الضغوط وخفّت عنه أعنف التوترات:

- *إلا بالمناسبة! الأ خ هـلالي وإلا .. نصراوي؟*
الهلاليين ينعرفون بكشختهم ومن أزوالهم!! إلا
قللي هم فازوا على من؟ ما هو لازم أعرف ذي
والا رحت وطي!

وتوقع السائق السعودي الشديد اللطف والأناقة بأن الراكب القى عليه سؤالا وخمن بأنه حول مدي معرفته بالموقع المطلوب أو الزمن المتبقي للوصول اليه، فالراكب منذ الصباح كان خارج التغطية بالنسبة اليه لشدة الزحام أو لأسباب أخرى عديدة، وسيتفضل عليه بإجابة تثبت مدى تمكنه من أهم متطلبات عمله كسائق وهو الفهم! وتطمئنه بقرب الوصول، فقال وهو يهز رأسه دون رقبته وبحركات منتظمة كراقص بندول الساعة:

- *ايش صديق؟ ايش كلام؟ انا فيه معلوم.*
وزارة سيميسي! بس سوية يمكن خمصه دقيقة
مزبوط، يصير انت في سميسي، أنا معلوم تمام!

ولاحقا حمدا لله في تلك اللحظة أنه أصبح فعلا بالقرب من مستشفى الشميسي ليدخلوا سعود العبد الله فيها كحالة طارئة ومستعجلة.

وأما سائق التاكسي الأنيق فأنطلق فورا ليطوف شوارع الرياض وأحياءها وهو دوما خارج التغطية ولا يمكن رصده من شدة الزحام، ولكن! قيل إنه يشاهد يوميا ولأكثر من مرة وهو ينزل أكثر من راكب في طوارئ الشميسي!

وربما هو المكان الوحيد الذي يعرفه والذي لابد أن يوصل كل زبون اليه!

******

صرخوا! الرأفة بالقتلة!

حتى بعد أن أدخل في دهاليز هذا السجن فقد وجد عددا من الفرص السريعة ليختطف حياة البعض دون أدنى شفقة ودونما سبب! وظل يقبع في زنزانته المنفردة التي تحذر منها القوارض وتوصي بذلك الحذر أقاصي أجيالها، كما تخشى أي حشرة أن تطوف في أرضها أو تحلق مجرد ذبابة، فأي كائن يعلم جيدا بأن لا مجال له بفرصة للحياة حين يرتكب حماقة بمثل هذا الخطأ الفادح في أي لحظة.

وكان يتجول في هذا العرين ولا يبرح عن مسافة المتر وأجزاء منه بروح الضبع الجائع بأمل دخول أي قادم، أو بأمل قدوم المحاكمة، عسى أن تمنحه أقداره فرصة جديدة للخروج ليعيش ويحيا كأمل هؤلاء المدافعين عنه، ومن خلفهم جماعات من المحبين، وهم المعجبين بأعماله الإجرامية، ويتقدم كل هؤلاء المنادون بالإصلاح!

وبدء مناداتهم أولا باستبدال عقوبات الإعدام والقصاص المشروعة والحتمية الى أساليب تعتبر حضارية متطورة باعتبار الجريمة مرض يجب أن يخضع مرتكبها للعلاج وإعادة التأهيل!

في تجواله بخطواته المتنمرة في قفص الأسر هو يمارس الانتظار حركيا في تربص لاقتناص المفاجأة مطلقا بريق نظراته في تضرس وزفير لاهث كالزمجرة عند كل زاوية والتفافة ارتداد، كانت أيضا العدالة الصادقة تسير بخطى هادئة

وحولها من ينتظر في ملل ومن ينفث في حنق ونظراته تتوقد شراسة، في ترقب ورجاء بنهاية لهذه النهاية وبحسب السيناريو المضاد وفي الاتجاه المعاكس!

وظلت منذ بدء لحظات المحاكمة تأمل بانتهائها سريعا بانتزاع روحه الشريرة من بين أضلاعه وبأقسى الطرق وترسل بلا أي أسف الى المكان المأمول والمناسب الذي تستحقه ولابد منه، لكي تجد بقية الحيوات الأخرى فرصتها في العيش في مساحة الأرض والزمن الممنوحة لها من خالقها، وفي سعادة في مساحة التسامح التي خلقت منذ البدء فيها ولها.

وها هي آماله في نفس هذه اللحظات آخذة بالاستعداد للقفز مرحا من محاجر عينيه المحمرّة بلون الدماء التي سفكت أمامها بيديه وبينما هو يقلب في الحضور نظرات مسلطة على نوعيات ما وأعداد من الرقاب والحناجر التي يأمل أن ينال في النهاية فرصة العيش ليستأصلها ويغتسل بما تنزف من دماء، والجميع يراه ولا يرى الوحش الذي يظن بأنه غير مرئي يدور في أعماقه واللعاب يتصبب من أنيابه كما يدور هو في قفصه وروحه ملطخة بالدماء وكان مخيفا بالرغم أنه مغلول الى قيوده الثقيلة في قفص المحاكمة!

فهو يجد المغريات والكثير من الدوافع والفرص في شن العواء والصراخ المرعب الذي يدوي بين الجدران وجنبات القاعة، وهي الساحة وميدان المعركة المفتوح بين العدالة والشر، وفي متعته بالنظر بحثا وتسمرا ثاقبا في سماكة رقاب صف القضاة وشهود الإثبات وتوصله لأفضل نتائج المفاضلة بينها في تصوره لكل ميزة فيها بالجودة وحجم السعادة فيما بعد لحظة التنفيذ،

فتنطلق ابتسامة أنيابه ببلوغ مخيلته لأجمل المشاهد وهو يتخيل الضحية أصبحت بين يديه خنقا أو نحرا أو في أشلاء، وتغزوه النشوة برائحة الدماء الساخنة واندفاعها بغزارة وسرعة مع مفارقة الروح للجسد.

وحينها كانت تتراقص أمامه الكثير من الاختيارات والعديد من الأماني من خلال ما يجري بين أعداد هؤلاء الحضور لأنه لم يعد يسمع ما يدور، وكأنه لا يعنيه، فقد أصبح ما يعنيه حقا هو جميع هذه الإشكال والحالات المفضلة التي يراها أو يسمع منها رنين أصواتها ما يثير فيه التشوق والحماس، وكأنها تستدعيه للخروج من القفص ليجلس في القاعة ويحدد طلباته ورغباته إلى أقصى درجات الاستمتاع بالتشفي، لأنه مازال عطشا، لم ينل أو يعط فرصته الكاملة والتي يشعر بأسره هذا بأنه حرم من إرواء عطشه وظمأه شديد، ولكنه! أبتسم أخيرا وبرز بريق أنيابه وهو يسمع الأصوات تتعالى بجنون في جنبات القاعة والقاضي يحاول إسكاتها ليصدر حكمه:

- ***يحيا العدل! يحيا العدل!***
- ***الرحمة، بالقتلة باسم الرحمة ..***
- ***الرحمة بالقتلة! باسم الحضارة البشرية والإنسانية.***
- ***الرحمة، والرأفة بالقتلة للسمو بأخلاق الإنسان!***

وكان بينها أيضا صوتا وحيدا مقابل ثلاثة أصوات تطالب بالحسم.

******

قلب خارج التغطية

كانت عيناه ترنو متأملة خلال النافذة المفتوحة، نحو فضاء لامتناهي بزرقة سماء باهتة بأقصى الأفق الشرقي المنبسط مع امتداد النظر ولا تعوقه هضاب ولا مرتفعات سوى التراكمات المتباعدة من قطع السحب ترى بأشعة شمس ما بعد الظهيرة بقعا ناصعة تتلاشى في ذيول خفيفة حتى تختفي في فراغ حتى يظهر فيه ركام آخر، وان كانت قبة السماء في غاية الصفاء بزرقة فيروزية عميقة لما يبتعد عن تلك الأطراف، وكان يحجب الشمس بين حين وآخر ما يتلبد من غيوم أشد كثافة فوق المرتفعات القريبة في جهة الغرب بينما تشق خلالها الطريق نحو الغروب، وتظهر مثل هذه الانعكاسات أيضا على ملامح وجه عبدالجليل، وتشبه ما يجري في أعماقه من تعكر وصفاء يدوم للحظات ثم تخيم عليه سحابة من القلق تتبعها سحنة من التوتر ثم تغزوه عاصفة من الغضب يهز منها رأسه بحركات عنيفة ليطرد ما حاصره من أفكار ومشاعر، تخمن وتؤكد وتقترح بأن تلك هي أبرز عيوبه، وبأنها السبب في جميع مشاكله، ولكنه يقرر كالعادة استبعاد ما توصل اليه من لوائح القبول، ويعود ليبحث من جديد عن الهدوء وبعد استقرار السكينة على قسماته ينطلق في رحلة جديدة أيضا في التأمل لكشف سر المنفذ الغامض للطريق الآمن والرحب الذي يسعى للدخول منه إلى سعادة الحياة الحقيقية.

لم يكن عبدالجليل وحيدا تماما في هذا المكان أو هذا المكتب بينما يمارس فعليا رحلاته المتعثرة في التأمل وانطلاقه وحيدا هربا من حقيقة وجوده وان كان عبر بصره ومن خلال نافذة طالما لديه وقت الفراغ وأمامه المساحة المترامية في الفضاء الواسع، فيخرج بعيدا عن محيط الجدران ليعاني مرات ومرات في صمت، والغرفة مكتملة العدد باحتلال مكتب الآنسة إيمان مساحة الجهة اليمنى بالكامل، وهي موظفة شابة مثابرة ومجدة في عملها منذ تعينت في هذا القسم قبل سنتين وكعادتها تظل منكبة على أكداس الملفات الكثيرة والكبيرة الحجم من سجلات المرضى، وتنهمك في التفحص والتدقيق بين السطور قبل حفظها النهائي في الأرشيف، أما الجهة اليسرى فأحتلها صباح اليوم الشاب يونس بن حسين المعين حديثا، والذي يكثر الابتسام ليخفي سطوة ملل تخنقه في تلك الزاوية وهذا الفراغ المطبق بعدم العمل وهو ما منح له وبكل كرم في يومه الأول، ربما كهدية قدوم، فوجدها فرصة لا تفوت مع استمرار غرق رئيس القسم المتواصل في السرحان وشرود ذهنه ونظراته في ملاحقة بريق السراب عبر النافذة ربما مفكرا في أمور هامة في العمل ويحتمل انها هموم خارجية تلاحقه وتظل تقتحمه من يعلم؟ لكنها تتزامن مع انغماس تلك الموظفة الشابة التي لاشك بأنها جميلة جدا خلف حجابها ونقابها وتظل تختفي بين أوراقها دون أن ترفع بصرها للحظة، والغريب أنها منذ الصباح لم توجه نحوه أي نظرة وان عابرة مطلقا منذ دخلت المكتب وألقت بتحية عامة رسمية خاطفة للمدير ومباشرة جلست وأخذت تقلب الأوراق المنتظرة فوق مكتبها، ودار بينها وبين

رئيس القسم حوار قصير تلقت فيه عددا من التوجيهات دون أن ترفع رأسها نحوه إلا حين تنبهت لوجود يونس حسين، فأرسلت نحو رئيسها تلك النظرة الطويلة التي تحمل الدهشة أو التساؤل ليبتسم ويعرفها بالزميل الجديد ويعرفه أيضا باسمها لينال يونس منها نظرة سريعة أصبحت الوحيدة وان ذيلتها بعبارة ترحيب مقتضبة على عجل، وانطلقت فورا نحو عزلتها للتفان في العمل.

ولم يكن لدى يونس حسين ما يعمله أو يفعله، وقد عرف

بذلك ورئيس القسم يقول له ضاحكا بعد قدومه وتسلمه للمكتب:

- لا تستعجل على الشقاء! قدامك واجد، وخلك

"ريلاكس"

استمتع اليومين على قد ما تقدر، ترا جاي أيام

تتمنى مثل هذي اللحظات اللي تتمناها الآنسة

أيـمان ...

ابتسمت ولم تنظر أو تعلق، وكذلك أبتسم يونس لهذه المقولة وأمال فورا ظهره مع المقعد إلى أقصى الخلف، وأوجد لعينيه المساحة والكثير من العمل بإرسال النظرات السطحية أولا ودون إشراك التفكير أثناء المسح الشامل لسقف غرفة المكتب ثم لما فيه من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وبينهما دوما محطة توقف طويلة يجدها دوما مغلقة ويظل للحظات خارجها، ويواصل ولكنه يصل للنهايتين سريعا ودونما حاجة للالتفات ليجد نفس النقطة، ويجد فيها نفس النتيجة، وبرغم كثرة محاولاته وافتعال أنواع من التحركات وإصدار أصوات لفت

الانتباه عن وجوده في هذه المحطة، ولعل وعسى يجد الاهتمام أو الضيافة أو رفقة طريق ولكنها تفشل، ويرحل بصره ليذرِع نفس المشاوير ووحيدا، ومع الأيام أدرك بأنه خارج التغطية!

وربما إلى حين!

مجلس العصاري

توقف أحد الصبية عن الركض بعد أن نظر إلى الخلف وكان يعدو بين مجموعة الصبية وهم يطاردون الكرة، وقال بصوت عال وهو يؤشر بإبهامه خفية نحو ناحية بعينها يعرفها الجميع:

- *خلاص يا عيال! وقفوا كوره، خلاص!*

وكأمر قيادي توقفت أرجل الجميع بعد أن توجهت أنظارهم بسرعة وبنفس اللحظة نحو الوجهة أو الهدف المحدد بالإشارة، وكانت نحو رجل جلس للتو غير بعيد على عتبة أحد البيوت، وينظر إلى ساعة يده بتركيز شديد، فمنذ عدة ساعات لم يرفع خلالها بصره بعيدا عنها أبدا، انه يترقب باهتمام بلوغ عقارب الساعة ووقتا محددا، ويبدو أنه شديد الأهمية بالنسبة له، وقد أحس الصبية باقتراب ساعة الصفر، فأوقفوا جميع نشاطهم أو تحولوا به إلى شارع آخر، وان تأفف البعض وأظهر أغلبهم الامتعاض إلا أن كل منهم سار بهدوء وصمت نحو المكان الذي ترك فيه حذاءه أو غترته أو كتاب، وتفرقوا في اتجاهي الشارع أفرادا أو بمجموعات صغيرة يتبادلون الحديث والضحك أو يلاحق بعضهم بعضا، بينما الرجل مستمرا بالتحديق في ساعته منتظرا الحدث وربما زائرا مهما حتى الصبية أسهموا معه في إخلاء الشارع وهدوئه ورغم أنه يعتبر شارع متوسط الاتساع ومن شوارع الحارات الداخلية بمبانيها التي يغلب عليها الطابع الشعبي

والبيوت أغلبها من ذات الدور الواحد أو من الدورين ودهنت بطلاء الرخام المعروف الناصع البياض إلا أن الشارع يتميز بحركة لا بأس بها من المارة والسيارات العابرة لتواجد بعض المحلات التجارية الصغيرة والبقالات على جانبيه، والغريب أنها شاركت الصبية وبدأت بالانحسار في تضامن عجيب من أجل الرجل، الذي قفز هذه اللحظة وربما أزف وقت المهمة أو وصول الزائر المهم، وأستدار بسرعة فاتحا جانبي باب منزله أو "الدرفتين" وخرج يحمل سجادة كانت مطوية وجاهزة في الدهليز، وأنطلق بها إلى وسط الشارع وبحث عن مكان محدد مواجه لباب البيت وفرش فيه السجادة على الأرض، وراح يرتب وضعها بعناية حتى تأكد من سلامة العمل، وأتجه مهرولا الى الدهليز ورجع حاملا الوسادة الأولى أو "مركأ" وأتبعه الثاني فالثالث، وحدث مع بدء المهمة بفرش السجادة أن جاءت من طرفي الشارع أكثر من سيارة وتوقفت في مكان ما قبل السجادة وكان يبتسم أصحابها ودون أدنى تعليق يعودون بها إلى الخلف من حيث أتوا، وهكذا فعل كل من أتى بعدهم.

وخرج الرجل أخيرا يحمل بهدوء صينية نحاسية كبيرة، فوقها إبريق شاي كبيرة إلى جانبه "دلة قهوة" براقة وحولهما فناجيل لامعة كثيرة، ونقل الصينية أكثر من مرة إلى أكثر من موضع وتبين حرصه بأن تكون في وسط السجادة تماما وبدقة، وترك كل شيء وعاد راكضا وألتقط" عجراء" كانت مسنودة جوار الباب طوال الوقت وان كان يعلم الجميع بوجودها فلاشك هذا أسهم بإيجابية – بطريقة ما– في إخلاء الشارع وفي الإعلام ومراعاة وقت الحظر، إن لم يكن

نابعا بداعي التضامن الذاتي، ورجع الرجل بالعجراء أو الدبسة، وقل عنها أي مسمى ففعلها واحد، وسار بهدوء وأخذ يدور حول السجادة وينظر بإعجاب اليها وعلى ما فوقها ومن كل الزوايا ويركض ليصلح أي نشاز حتى أستوى في نظره الأمر، ثم سار مبتعدا مسافة مترين عن هذا المجلس البديع في الهواء الطلق، وجلس على الأرض واضعا العجراء أمامه مستمتعا بالمشهد وحسن عمله، وأخذ يستقبل بضحكات غبية مكتومة عبارات الإعجاب التي يهتف بها أصحاب المحلات المحيطة وكل من يمر من خلفه، والظن بأنها المساحة المسموح منها عبور الشارع وغير معروف كيف عرف الجميع بطريقة ما بهذا النظام إن لم يكن مساهمة ذاتية، وأخذت تنهال عليه عبارات الإعجاب وهو يطأطئ رأسه تواضعا وخجلا ويهتز جسمه مع خروج كل ضحكة بلهاء متقطعة كلما سمع عبارة جديدة، ثم انهمرت عليه العبارات وتظل تكرر مع كل مرور ودون أي مناسبة:

- ***ما شاء الله يا ابو صايل! فرشتك اليوم أجمل وأغلى من فرشة أمس!***
- ***مبروك يا ابو صايل على المجلس الأبهة .. أوه! يا هنيك، أي والله!***
- ***مبارك عليك يا عم صايل على السجادة العجمية!***
- ***يا سلام على المجلس، وعلى ذا الإبريق والدلال والفناجيل! واش الكرم الزائد هذا يا أبو صايل؟***

والملاحظ أنه لم يضف أحدا، أو يطلب من أحد الجلوس لتناول فنجالا من الشاي أو القهوة، كما لم يتجرأ أحد على فعلها أو طلبها منه، وهناك من لا يمانع بالموت على أن

يعرف كيف ومتى فهموا هذا الأمر؟

ولكن يظل ما هو معروف عن تاريخ "جلسة العصاري الرومانسية" هذه أنها قائمة منذ خمس سنوات وفي وقتها المحدد دون انقطاع، وقد فرشت حينها في ذلك اليوم نفس السجادة ووضع جميع ما عليها الآن من الأثاث ودون أي نقص، وكان ذلك في تمام الساعة الرابعة وعشرة دقائق وصفر من الثواني واستمرت حتى الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة وصفر ثانية حيث يزال كل أثر لها فورا، ومنذ ذلك الحين لم تزل تلك المناسبة القديمة مستمرة وما زالت نفس الأواني لم تستخدم وسجاد المجلس جديدا لم يجلس عليه أي ضيف أو أي إنسان، حتى هو نفسه كان يجلس بعيدا عنها، وعلى الأرض!

وفي تمام الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة وعدد من الثواني تكون حركة مرور السيارات وغيرها من المركبات في هذا الشارع أكثر من طبيعية وسلسة، وقد تعودت ناس الشارع ومن اعتادت المرور فيه هذا الوضع وكان يتقبله الجميع بابتسامة متسامحة وبصفاء قلب حتى أفراد قلم المرور وكامل خدماتها لم تسجل أي حادثة في امتداد هذا الشارع خلال هذه الفترة وطوال السنوات الخمس الماضية، ولهذا فالتقارير عنه دائما مميزة!

واعتبرته "شارِع آمن جدا " وخارِج تغطية أي دوريات مرورية خلال تلك الفترة الزمنية وبالتحديد!

*****

النداء الخفي!

الطريق أصبحت طويلة ومملة وأخذ سلمان يشعر بالتوتر وآلام مع تصلب عضلات ظهره وأطرافه، فمنذ ما يقرب الساعة وهو عاجز عن العثور على "تحويلة" إلى طريق جانبية تكون مخرجا أو مواقف جانبية والأهم أي مساحة يستطيع أن يقف فيها بأمان ويخرج اليه بسيارته بعيدا عن الطريق الأسفلتي ذو الاتجاه الواحد مع جوانبه الضيقة وغالبا معدومة، فأحد الجانبين هو في جهة المساحة التي نحت فيها هذا الطريق على سفوح المنحدرات الصخرية وعلى امتدادها، والجانب المقابل فليس سوى حافة مفتوحة على فراغ في هاويات بعمق آلاف الأمتار تحليقا حتى القاع، فإنشاء هذا الطريق اعتبرته الحكومة مغامرة خاسرة واجتراء على المستحيل، فقام سكان من جميع في جماعات من المغامرين لإثبات بأنه لا مستحيل أمام فوة الإرادة والتصميم، وبدأوا بمغامراتهم في مراحل محدودة حسب الإمكان وفي فترات متقطعة ربما فبل عشر سنوات وبمجهودات تطوعية وإمكانيات مادية صغيرة من المساعدات وتبرعات مختلفة، ومازال العمل فيها يزحف ويتعرض للكثير من العوائق والأخطار وأهمها الانهيارات المفاجئة وما يحدث بسبب الأمطار والظروف الجوية السيئة، وبسبب سوء التنفيذ لقلة الخبرات وضعف الموارد المانعة للتوسعة وبناء الحواجز الوقائية على جوانب الطريق وإنشاء مجاري متماسكة وقوية للسيول، فاستمرار السير بالطريق يعتمد على حداثة أعمال الصيانة ولهذا لم ير سالم

منذ بدأ بهذه المغامرة الغامضة النتائج وكانت نزولا في معظمها إلا أنه ظل لا يرى سوى خلفية جانبية لستارة سوداء مترامية من الظلام الدامس تتلألأ فيها تشكيلات من النجوم اللامعة أحيانا ولبعض الوقت ثم تحجبها كتل عظيمة داكنة بأحجام مخيفة عرف بأنها للغيوم وللضباب الذي يكسو قمم هذه المرتفعات، وأخذ الرعب يحيط به وتصيبه حالت من الذعر والوساوس والأوهام يرى فيها أنه يسبح بسيارته في فضاء السماء مع النجوم وبين الغيوم فيسارع بالالتفات والنظر الى الجانب الآخر الأيسر من الطريق والملتصق بقوة بالصخور الجبلية فيطمئن بأنه يسير فعلا على الأرض وما يزال متصل بها، وفي منظور للحقيقة هو محلق بطريقة ما على ارتفاعات تتجاوز أحيانا الثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر وتلك الخلفية المظلمة ما هي إلا هاوية عميقة مرعبة لو رآها في ضوء النهار لأصابه انهيار أو إغماء بصدمة الارتفاعات، فهو يسير حقا فوق حائط صخري منتصب من سلسلة جبال تخترق السحب ويعزل السهول الساحلية بعمق تلك المسافات الرهيبة عن بقية الأرض في الجهة الأخرى وما فيها من أودية وهضاب وصحاري، والتي أمسى سالم يسير بسيارته الصغيرة بجوار السحب أو يخترقها أو يعتلي عنها أحيانا، ولكنه لا يرى بقية المشاهد كاملة المرعبة المتوارية في ذلك الظلام، والأهم من كل ما ذكر أن المغامر الصغير وبكل تأكيد لم تصله معلومات هذا الطريق كاملة وصادقة عن حقيقة ما أصبح يسير فيه والأدهى ان علم وتجاهل فيعني ذلك أنه فعلا أختار الانتحار فقط وليس المغامرة المحتملة النجاح، لأنه هو وسيارته الصغيرة لا يملكان أي شيء

من القدرات والإمكانات ويملك حتى أقل خبرة مطلوبة للقيام بالقيادة السليمة في داخل المدن فما بال بالقيادة في مكان لا تتجرأ عليه سوى الشاحنات الجبارة مع خبرة واسعة بالقيادة في مثل هذه الأماكن ولا يحقق السلامة التامة إلا القلة، وهو الليلة يقوم بمجازفة حقيقية خطرة!

ومعلومات هذا الطريق التي يعرفها أصحاب الشاحنات ومن أعتاد منهم على السير فيه وكون خبراته عليها دون انقطاع ولفترات طويلة تعتبر مخيفة لهم، ويعلم الجميع عن هذا الطريق أنه لا يزال طريق تحت الإنشاء وتغلق الظروف أجزاء منه فجائيا ولا تسير فيه سوى الشاحنات الجبارة والسليمة مع الخبرة الفائقة والاستعداد الكامل للبقاء والحياة فيها لعدة أسابيع، وحتى هذه الليلة لم يعلن يوما عنها بعد أو اعترف بها كأحد طرق المواصلات السالكة والمأمونة، بل طريق شاحنات خطرة العبور ولا تزال تعتبر منطقة عمل لطريق تحت الإنشاء، ولكن يمكن أن تسلك فيه شاحنات صغيرة وفي أجزاء محلية محددة ونهارا من بعض سكانها والعارفين بالطريق، أما في الليل فلا يتمكن من ذلك إلا في الأماكن القريبة والآمنة ومن قبل سائقين معينين وبمواصفاتهم الخاصة، فالطريق ليلا للشاحنات وسائقوها الذين احترفوا القيادة فيه ومنذ فترات طويلة وعرفوا جميع طرق التعامل فيها في كل مسافة عرفوا خواصها مسبقا، كمسافات محددة للسير وللتوقف والزمن الذي يتوجب إخلاءها، فهناك نقاط توقف وتحرك وإجبارية متفق عليها بينهم ولكل قوافل الشاحنات الصاعدة والنازلة منها لضمان عدم غلق الطريق بالتكتل ولا مجال للتجاوز فيما بينها إلا في منطقة معروفة

ومتفق عليها، ويتوجب تطبيق التعليمات والحرص على التنفيذ بدقة لجميع المتطلبات الضرورية لنزول وصعود كل قافلة من الشاحنات.

أما المعلومات العامة الدارج معرفتها بين عامة الناس فهي قليلة ومحدودة ولا يعرف بوجود الطريق إلا قلة، كطريق ممهدة غير أسفلتيه ينحتها بعض الأهالي وترصف بالصخور على سفوح ومنحدرات سلسلة جبال شاهقة متخللة قممها العالية ومازال العمل عليها منذ عقود من الجهود والكثير من التضحيات ليتحقق حلم اختراق هذا العازل الصخري الهائل ويتصل ما فيها من مدن وقرى وضواحي في الجانبين السفلي في السهول والمرتفعات وما خلفها، والخبر المغري الشائع والذي يتجاهل المخاطر الحقيقية فيه أن مسافة هذه الطريق – بانتهائها– قصيرة جدا وتوفر سهولة التنقل بين الجانبين وفي مدة زمنية أقصر بكثير من الوقت المهدر على الطريق الحالية على امتداد الهول الساحلية على البحر.

وهذه المعلومات الناقصة هي التي أتت بهذا المغامر الشاب سلمان ليسلك طريق الخطر المجهول ليصل الى قريته في السهل الساحلي المنخفض بأسفل المرتفعات ، ولسوء حظه وصل بداية الطريق للنزول فيه قبل منتصف الليل ولسوء التخطيط والتدبير بلغ به الجوع الشديد أقصى مداه والإرهاق الى أقصى حد يتحمله مثله والأقوى قدرات، وأصبح في حاجة ملحة إلى أكبر وقت للراحة ولو بما يتحتم عليه بالقليل منها، ولذا توجب التوقف وفورا للاسترخاء وتفريغ رأسه من نوبة . نعاس متسلطة– تتشبث بأجفانه بتعنت وإصرار مع تصاعد

لوسائل الترغيب والإغراء، فتفرش أمام عينيه غلالا ضبابية وطبقات معتمة أخفت ولأكثر من مرة عنه معالم الطريق، فيأخذ بصفع وجنته وجبينه مرات وقام بلكم رأسه مرات عديدة رعبا بعد غفوات قسرية مرقت الى عينيه وأغلقت خلفها الأجفان وكان يستغرق بعد اللكمات والصفعات الشديدة لحظات ليستعيد وعيه ويسترد تركيزه ويرى حدود الطريق الحقيقية من جديد، ويظل معظم الوقت يسير في شبه غيبوبة بأسباب مزدوجة من الإرهاق والنعاس ومن تأثير الصفعات واللكمات القوية التي تفقده الاتزان، فكانت الأذيال الطويلة لهجمات النعاس الثقيلة تلتف حول أحداق عينيه فيلزمه وقت طويل لفك حصار طياتها والتخلص منها. وكان في ما يراه أشد رعبا هو انجرافه الإجباري المفاجئ في قلب مسار قطار متصل من الشاحنات المنتظمة في سلسلة واحدة، وقد أحتلت كامل الطريق بجوانبه في نزول بطيء ممل، وتأكد بأنه علق كخرزة صغيرة في مكان ما من سلسلة لا يعرف لها بداية ولا نهاية وحين زحف بسيارته لمسافة مكنته من مشاهدة جانب الطريق فرأى الامتداد الهائل والمريع أمامه وخلفة من أضواء الشاحنات وفي التواءات ثعبان عملاق على جوانب السفح لم ير له رأسا ولا نهاية، وزاده المنظر خوفا وعاد سريعا يلتصق في مكانه في الصف بين شاحنتين، وفيما رآه في هذا العقد المنظوم أمامه وخلفه ما يقطع أي رجاء تماما بالحصول على أدنى فرصة للوقوف بسيارته والحصول على مبتغاه من الراحة ومطالبه الجسدية والنفسية الكثيرة، وانه وقع حقا في أضخم مصيدة في الكون.

لقد أوقع نفسه في ورطة كبيرة لأنه جاء الى طريق يجهلها تماما، ولم يعرف مدى خطورتها ولا نظم قوافل الشاحنات ونقاط التوقف والمحاذير من سير السيارات الصغيرة فيه ولا أبسط متطلبات واستعدادات السير في المسافات الطويلة، وأصبح كغصن صغير يندفع في تيار نهر ولن يتوقف عن الجريان أبدا.

وما أدى إلى وقوعه في هذه الورطة الكبيرة عدا أنها المرة الأولى التي يسافر فيها كسائق في أي طريق، فالمؤسف أنها المرة الأولى التي يقود فيها خارج المدينة وهذه المسافات الطويلة، والسير ليلا في الظروف المحبطة التي يمر بها الآن، والأدهى من ذلك جميعه أن تعلمه لقيادة السيارات كان ولأول مرة أيضا قبل أشهر قليلة فقط!

وهو يسير الآن في طريق مجهولة تماما بالنسبة إليه، ولم يعرف عنها سوى كونها تختصر نصف المسافة التي سبق وقطعها حين غادر أول مرة قريته الواقعة في السهول بأسفل سلسلة المرتفعات، وكانت قبل ثلاث سنوات في رحلة البحث عن فرص العمل في العاصمة وبناء الأسس القوية لمستقبله، وكانت الرحلة على ظهر شاحنة ومسارها في الطريق المعتادة والمعروفة على امتداد الساحل وبمحاذات البحر حتى انتهاء ارتفاعات الجبال الشاهقة بمنفذ للانتقال الى الجانب الآخر، ولكن المسافة طويلة وتستغرق سفرا شاقا بين سبعة أيام أو خمسة أيام متصلة ومليئة بأنواع من المشاق والكثير من الملل.

– ليتني أستطيع النوم الآن .. لساعة واحدة ..

واحدة فقط .. ومقابل كل عمري

خرجت هذه العبارة من فم سالم كصرخة استنجاد ممتلئة باليأس في لهاث مستميت طلبا للغوث، وطلبه بدأ باستعداده للرهان على شهر من عمره فوجد بعد لحظات أن المدة رخيصة مقابل ساعة من لذة النوم وبالتالي ظل يرفع الرهان إلى سنة وسنتين ووجده من العدل التنازل مقابلها عن عشر سنوات وأخيرا صرخ بتلك الكلمات لينهي المزاد على عمره كاملا ومعها الشكوك بأن ساعة النوم الواحدة تلك أثمن وبكثير!

وطالت عنده مسافة الطريق مع ليله الطويل في المعاناة حتى شعر بتوقف عقله وتحجر أفكاره، وراح يبالغ في الآمال وبالأمنيات حتى جاوزت الجنون، وفجأة طرأت له فكرة وجد فيها بصيصا من الأمل وتمنى أن تسهم في الحل لشيء من قسوة معضلته ويجد فيها عونا لهزم النعاس الغادر وتجنبه عدوان الإرهاق من خلال تنشيط تفكيره وعقله الباطن في فتح حوار صادق جدا مع نفسه، وفي الأعمق والأدق خصوصية من المشاعر وفي أخطر ما مر به من مواقف ومشاكل طالما الجو والمكان آمن جدا وليس فيه من يرى أو يسمع سوى صاحب الشأن هو ونفسه!

فعليه أن يبدأها أو يبادرها بفتح كل الأبواب التي كانت مغلقة وما كان يرى أنه يجب أن تكون مدفونة وأبدا في صدره متخذا من نفسه صديقا وفيا ومخلصا لها في الصداقة من خلال الحوار المفتوح مع نفسه، أو يعتبرها طرفا آخر في الحوار يقف للمحاكمة أو للمصارحة أو للدفاع ولكن في الحقيقة وبالصدق وليس غيرهما، ولعله بهذه الطريقة يدب بجسمه وروحه وعقله الحماس فيسيطر

على تأثيرات النوم والتعب ويستبعد مخاوفه والعناء والشعور بالوحدة، فان أقسى مسافات الأسفار تزول بالرفيق!

فكل الخطوات بالرفيق تقطع وهي أمتع وأنفع وعلى هذا أخذ يمهّد للأمر مع نفسه وبدأ بالبحث والتفتيش في ذاكرته عن معلومة أو مشاكل وأسرار موءودة، وقد تم دفنها بأقصى عماقه كي لا يزعجه يوما خروجها أو روائحها من صدره الى العلن، وان وجد على لسانه احتجاجا حتى وان كان وحيدا بخروج صوته يقول:

- ***ليس تلك الأمور التي تؤتى هكذا وجزافا.***

قالها ثم بدأ وكأنه يراوغ نفسه بعيدا عن الصدمات بالمواجهة المباشرة فأختار أن يستهل الحديث مع نفسه بالدخول من زوايا آمنة بعيدة، وحيث أرتفع صوته وهو يقول:

- **يا أخي ألا تلحظ عدم توقف هذه الشاحنات أبدا؟**

  غريب!

فرد مجيبا على السؤال:

- **صحيح، هذا لأن فيها فريق من السائقين ويتبادلون**

  المواقع والمهام

  فلا يحتاجون للتوقف للراحة أو للنوم إذا ما أرادوا

كانت إجابته ربما غير مقنعة من جانب آخر وربما أراد أن يضيف ما يراه أكثر صوابا ولعله يريد أن يحدث شقاقا في نفسه:

- **لا! يا أخي! أظن بأن أهم الأسباب هي تطور مقدرة هؤلاء السائقين على التحمل لكثرة أسفارهم الطويلة...وليس كما هو أنت عليه يا مسكين!**

ويناسبك المثل القائل:

(ما فكرت تقوس قبلما تغوص)

وراح يبحث عن رد آخر مناسب أيضا لهجائه:

- **لا، لا! يوجد مثل شعبي آخر أجمل ومناسب وأكثر دقة لحالتك**

إذ يقول عنك: (أول ما شطح نطح)

لأنك لم تتعلم القيادة إلا منذ أشهر حتى ورطت نفسك بالسفر في مسافات طويلة ومن الوزن الثقيل دونما دراسة وتخطيط ولم تتخذ أبسط الاحتياطات في الأكل والشرب وترتيبات للنوم والراحة أو القيام بتوزيع مناسب للجهد لتوفير المجهود. والأهم عدم اختيار التوقيت والطريق المناسبة. يا حقير!

أحس بقوة لدغ هذه الكلمات فهتف حين أفاق للتو الى فداحة الخطأ الذي أرتكبه وما قد يتسبب به لنفسه وكل ما هو فيه حتى الآن:

- **يا الله! كيف حدث هذا؟ في الحقيقة لأعرف كيف**

تورطت بهذه الفعلة، فقد ظننت أن الأمور ستكون

أشد سهولة، بغض النظر عن الدافع الذي قادني

للقيام بهذه الخطوة الصعبة وبهذه الرعونة

وتساهلت بكل شيء حتى قمت بالمجازفة الخطرة؟

وسارع بالرد مستهزئا من تهربه المكشوف عن قول الصدق في إجابته:

- **لا تعرف؟ ما الذي قادك لهذه المجازفة؟ ما زلت**

تروغ عن الاعتراف، فالمؤكد أن الحقيقة مخجلة

ومهينة لك يا أسخف مخلوق!

فتلعثم في الرد للتوتر الذي بدأ يستفحل كلما حامت الضغوط حول ما لا يريد التطرق اليه أو الخوض فيه لا إراديا، ولكنها تحاول أن تستدرجه للمواجهة بمناورات متنوعة:

- **الحقيقة! ما عندي أي كذب، ولكني لا أدري كيف**

أفسر الأمر فقط!

لأن الإجابة فيها كثير من القسوة وبالأصح شائكة!

كأنه أراد أن يضيق على نفسه الخناق لتخرج الحقيقة وعلى لسانه:

- **لا تستمر في التهرب! فلا يوجد أحد هنا سوأى أنا،**

وأنا وفي مكان بعيد عن كل الأمة والبشرية، هيا!

أخرج بالإجابة الصادقة وليس إلا!

كان فيما قاله كل ما هو مطمئن ولكن هناك أحاسيس ما زالت تفرض الصعوبة في انتزاع الحقيقة لتخرج الى النور:

- طبعا، الصدق! ولا غير، ولكن سأحاول بطريقة قد تسهل فيها الإجابة على هذا السؤال العسير! فمن الممكن أن أطلقها في إجابات متعددة أو في كلام مرسل ومؤكد أن أي منها ستصيب الهدف، وربما تنسكب فيها الحقيقة بطريقة ما ودون ضغوط وربما دون وعي!

وشعر بأن نفسه مازالت تراوغ وتريد تمييع الإجابة فقرر الحسم:

- لكن! احذر! فليس في الامكان بأن تكون غير صريح مع نفسك وبالمطلق؟

وكأنه أراد بهذا يحكم الطوق حول نفسه ليظهر لنفسه المحاذير القاسية ومن صعوبة الالتفاف على النفس والمراوغة لإخفاء أي أمر قد يصعب فعلا على الإنسان التغلغل والخوض فيه والتهرب عن أي نقاش حوله بخاصة عند الوقوع في خطيئة أو ذنب مريع فيسارع محاولا دفنه ولكنه يظل مهما حاول التخلص منه وان تمكن من التكتم عليه فهو سيبقى كجرح دام في الأعماق حتى يلجأ لله ويطلب سرا بالعفو والغفران مع إعلان التوبة ولكن ما يتكتم عليه ليس بالمعصية فلما الحرج:

- صحيح! فأنا لم أرتكب خطيئة، ولكن أريد طريقة

تبعدني عن الحرج ومع هذا سأحاول! ولكني

عندها سأشعر بأني وقح، وربما سخيف

أو أصبح ذليلا أمام نفسي!

ولكن هناك إصرار من الجانب على وجوب بث الجرأة في الجانب المتحفظ ليستخرج الحقيقة وان كان انتزاعا:

- إنها ليست الأولى يا .. سيد! أقصد معاصيك وما

شابه ذلك! ولكن لابد من إظهار تلك الحقيقة، مع

التأكيد بأنها ستدفن فورا

في الأعماق من جديد بانتهاء الأزمة الراهنة في

التحديات!

هتف بصوت عال كأرخميدس:

- وجدتها، وجدتها! والإجابة حقيقية! أنا بالفعل مللت

من المراوغة، اسمع يا أخي:

إن الذي دفعني لهذا السفر الأرعن أني قررت

بالأمس السفر لقريتي لأفتخر فيها بنفسي وبسيارتي

التي اشتريتها للتو وأطوف بها على كل أهل القرية،

لكن!

توقف فجأة في ألم وحسرة:

- وساقني هذا الغرور وبدون أدنى خبرة في السواقة

وفي قطع المسافات الطويلة وبدون أي استعدادات،

حتى ما فكرت في مرافقة صديق أو أي شخص

يساعدني في كل الظروف؟

فرد جانبه الآخر ببعض التأييد:

- صحيح! نطقت بالصدق! انك فعلا قمت بجنون

الغرور .. بكل هذه الحماقات وأصبحت تعيش في

هذا المأزق!

فجاء تعقيبا على هذا القول يحمل التأثر والانزعاج:

- أوه! ولكن هذا الاعتراف والتحليل زادني انزعاجا!

لقد أظهرني بأقصى الحقارة والسوء!

ثم سمع ردا من نفسه فيه بعض الارتياح للإجابة:

- وللحق! قلت في هذا نوع من الحقيقة وبنسبة مئوية

كاملة.

ولكن، لو سألني أحد ما من أهل الديرة هذا السؤال

أتكون تلك إجابتي بهذا السخف؟

فكانت الإجابة والرد قاطع:

- بالتأكيد لا! فلابد أن تكون لديك إجابة مقنعة لهم.

والأهم أن تتمكن من قول الاجابة الأخرى الخاصة

بي وهي الحقيقة!

فخرج منه الرد يحمل اللوم والعتاب، لكشفه الغطاء عن مستور ويبدو أنه الأشد حرجا:

- **أتراني جننت! أتريدني أن أقول بأني قطعت كل هذه المسافات وقمت بكل هذي المخاطر لأنني أحسست؟ أو بالأصح أني رأيت حلما؟**

وكان هذا الرد مريحا للجانب الآخر ومشجعا:

- **نعم! أنا الآن حقا شجاع، ولكنها الحقيقة! ونسبة الحقيقة فيها مئتان بالمئة!**

وبعد لحظات من التفكير جاء الاقتناع سلبيا، ويحمل احتجاجا:

- **ولكنها والله مؤذية! والله فكرة مؤذية بجد!**

ثم صمت وأستغرق في تفكير وأجاب:

- **يا أخي! إن هذا ثمن بخس للحقيقة! فغالبا ما يكون قول الحقيقة أشد مرارا، ويكون ثمنها غالبا أشد قسوة وكثيرا ما تتسبب بالهلاك!**
  نعم! وقل أيضا من الحقيقة ما قتل!
  وأسأل في هذا المجربين، هذا إن كانوا أحياء

ووجد أن التفكير لم يظهر سوى المزيد من التردد والمعارضة:

- **لا! فان سئلت فلن تكون إجابتي الصريحة تحمل**

غباء على هذه الصورة!

ولكني سأعترف بأشياء حقيقية وبنسب مئوية

مضاعفة وتكون طبيعية ومأمونة!

وصدر هتاف حماسي:

- أنبشها! بالله عليك! لأرى وقعها في نفسي أولا!

وما زالت الإجابة منحرفة عن الحقيقة ولكن ما يصدر منه يحمل كل الصدق، وخروجه ملتهبا وكأنه ينفث من جوف بركان:

- يا أخي! لأنها تقال للجميع! وسوف يتناقلها الجميع

فلن أستطيع القول لهم سوى إني اشتقت!

نعم! اشتقت لكم! فأنا اشتقت للجميع! ولم أعد قادرا

على تحمل المزيد من عذاب الأشواق ..

أني أتيت اليكم لأفرغ عن قلبي شيئا من أحماله

الثقيلة حتى أعود الى العاصمة خفيفا ما أمكن.

وأعدكم بأني سأرجع في كل المرات اللي يملاني

الشوق!

ويرفع صوته كمساند ومعين لإيضاح عمق هذه الأشواق أو لإخراجها:

- ولأن قلبي بامتلائه تفور دواخلي وتفيض منها آلام

أشواقي وتتفجر منها الدموع من قسوة فراقكم

فأجد كل أرض بها أناس غيركم لا تطاق

فتضعف أسوار مقاومتي وتتحطم ..

فأصبح كوعاء فخار مكسور، لا شيء يستقر فيه

فلا يمكن الإبقاء على شيء بداخلي ..

ولن يتحقق البقاء لي!

لأني عندها أكون شيئا .. غير صالح لأي شيء

ولا لأن أبقى وأبدا!

وكأن دواخله تحولت الى أوعية فخارية أخذت تتفجر عن مكنوناتها:

- أجل! أنا اشتقت لأبي! ذلك الشيخ القوي الذي
يتدفق أكثر قوة وعاطفة حين تلم بي أي محنة
فيقدِّم روحه رخيصة كي ينجدني، ويحميني من
أي سوء وبكل ما يملك ليستر ما بدا مني
من عورات، ويهب لي كل راحته حتى في أشد
مرضه، فعزيمته تكون أقوى وأكثر شدة حتى أجد
غذائي كل يوم، ويتبعني بعينيه الكليلة وبقلبه
المنهك إشفاقا في كل خطواتي الطائشة والمتعثرة
حتى يراني أسير الطريق بأمان، وكل ليل
لا تغمض له جفن حتى يرى أجفاني تقسم بأني أهنأ
بالمنام ...

وفجأة! خرج صوته ضعيفا، جياشا، واهنا وكأنه يئن تحت أحمال ثقيلة أو يعاني محتضرا من طعنة رمح قاتلة، وفاضت آهاته بانفتاح الجراح العميقة:

- آه. يا أمي! الحق، الحقيقة! قلبي وكل أعماقي تشتعل
بالأشواق لكي أمي .. وتظل تصليني بحريق شوق
لا يخمده ما أسكبه من أنهار الدموع!
أمي! كم اشتقت اليكي كثيرا يا أم!
وهذي هي الأقوى حقيقة!
يا إلهي! أحقا!
إني أرى صورتها كملاك في صورة البشر ..
إنها محيط من الحنان الذي لا ينضب!
كم اشتاق الآن لرؤية أنوار السعادة على وجهها
الحبيب .. كم أتحرق، ليضمني صدرها الحنون
وكأن روحي تستنشق منه نسائم من نفحات الجنّة!

وسال صوته يترقرق حنانا:

- إني لأذكر الآن حينا في الصغر، كنت أشاكسها
دوما حتى تغضب!
ولكنها تهرع الي فورا لتحتضني دون أن تشتم،
وأعجب!
وحينها لم أدرك أنها لا تريد أن تغضب يوما عليّ

أو تخرج نحوي بوادر للغضب!

حتى علمت يوما إنها شفقة عليَ!

وحتى لا يغضب عليّ الرّب!

فأصبحت أسعى لإغضابها، ليس عقوقا بها ولكن!

حتى أحظى منها بتلك الضمة الحنون المشفقة!

والتي كنت أجدها وأشعر بأنها أعظم من الدنيا وما

فيها!

وهكذا اعتدت أمي أشواقا...

ثم خرج صوته كضجيج السعادة والأفراح:

- ياه! كم اشتقت إليهم! لإخوتي! أشقاء الجسد

والروح! وإنها لثلاث سنوات من الشوق المؤلم!

ولكنها أصبحت كثير حقا يا إخوتي .. وهو فعلا

شيء كثير

كيف استطعت فراق عشرتكم؟ وأن أخطو طريقي

الطويل هذا دونكم؟ وأن آكل طعامي مع أغراب ..

دون وجودكم؟

وأن أنام ليلتي في المنزل البعيد عنكم؟

وأن أبتعد عنكم .. كل تلك السنين؟ كم هو .. غريب!

فجأة! انطلقت من أعماقه صرخة متوجعة كما سبق، وكأنه تعرض لطعنة رمح غادرة جديدة:

- **وآه! ومعها ألف آهات أخرى!**

إني أكتوى اشتياقا "إليها"! وحتى الجنون!

ويكاد يقتلني الشوق، لخطيبتي الجميلة مريم!

إني اشتاق اليكي .. ولكنه شوق مختلف! ليس ككل الأشواق!

انه دائما .. متقد اللهب، ولكنه لذيذ الحريق ..

ولم أكن اعرف بأن للنيران ألوان حتى غدوت أصبح وأمسي وأنا

اكتوي بأشواقك التي عرفت منها كل نار

ومن جميع الألوان!

وتوقف كأنه يتأمل صورتها أو يتلذذ بشيء من نيران أشواقها ثم أكمل:

- **بل كنت أصنع أشواقك بنفسي ألما ولنفسي، كدفعات**

لمهر الحب الذي يرفض السداد والدفع له بالمال!

واني الآن سعيد جدا .. بأني سددت المهر كاملا بيد

خازن الأشواق!

واني قادم ومعي مهر العيش وبناء العش!

فطريق الحياة ودونك هو سفر في عالم الظلمات

والمشاق

فكيف يطاق إذا ترصدت بي ونهشتني فيه

الأشواق؟

جئت أحمل معي هدية! هي مفاجأتي!

فقد اختزنت أفراح ما مر من ثلاثَة أعياد ووفرت

ما فيها من سعادة كي أصنع لك منها عيدا واحدا

كبيرا، ولكنه عيد ضخم بأفراح ثلاثية الأبعاد

وكبيرة جدا، جدا، جدا! كحبي وأشواقي!

التي لا تضعف ولا تهرم ولا تموت!

توقف سلمان للحظة ثم ضحك بصوت عال ضحكا ساخرا ومتواصلا حتى سالت الدموع من عينيه وثم قال:

- **يا أخي! كفى أشواقا! وتلاعبا واستغلالا لأشواقي!**

هيا اعترف! وبالحقيقة الأكثر تحديدا، أجب

فالسؤال سيظل يطالبك بالحقيقة مهما ..

وقاطع الصوت نفسه ولكنه محمل بالإرادة:

- **أجل، أنا سأعترف! ولنفسي، نعم لنفسي!**

وليس بيننا الساعة غريب ..

وتابع:

- **و"بالحق" هذه المرة! ومثلما سبق حيث قلت بأن**

سبب المجيء هو الحلم الغريب! ولابد انكِ يا نفسي

تعرفين!

وفي عناد:

– ولكن أوضح وقل كيف رأيت الحلم؟

نعم! ماذا كان في الحلم؟ أعني حلم الليلة البارحة!

اعترف لي بما رأيت؟! وما كان ذاك النداء الذي

سمعته!

وفي استسلام:

– حسنا! وبالتفصيل .. أنا في الحقيقة رأيت في ذلك

الحلم الغريب! لا! سمعت أولا فيه

منادي يناديني ويقول ..

آه هـ هـ أأأ !

وما حدث في هذه اللحظة أن سلمان فقد السيطرة على مقود السيارة عند منعطف مفاجئ وخطير فاندفعت السيارة في فضاء الهوة المظلم، ولا شك سيمر زمنا طويلا قبل أن يصل هو وسياراته إلى تربة أرض السهل الساحلي وحيث قرية سالم في قاع منحدرات تلك الجبال الشاهقة، ولكنه أكمل خلال الطريق في الهاوية آخر أصدق الحديث مع نفسه:

– الآن! عرفت وفهمت سر ذلك النداء، الذي كان

خافيا والآن!

أنا أصبحت لأمر الله مستجيب! لبيك!

لبيك اللهم لبيك

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله!

*****

نبذة عن المؤلف

محمد ساهي آل عبدالله

السعودية _ مكة

_مدرس ومترجم بعدة وزارات سعودية

أعمال تحت الطبع:

_ أغاني عاشق ليالي القمر

_نزيف ليالي القمر

_ عزيف ليالي القمر

اعمال سابقة:

نهاية المتآمر الفرخعون – دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

الفهرست

بيت الطين ٥

مجرم بأثر رجعي.................................. ٢٢

قتلني زوجي في مهمة رسمية ٤٠

للأسف؛ خارج التغطية! ٦٠

أبناء البندقية.. ٦١

الفورد الكستنائية ٧٧

أمومة طفلة... ١٠١

المرسيدس السوداء................................. ١٠٦

جدتي أم الشهداء.................................... ١١٢

سعوديموزين.. ١٢٠

صرخوا! الرأفة بالقتلة!................................ ١٢٧

قلب خارج التغطية................................ ١٣٠

مجلس العصاري................................ ١٣٤

النداء الخفي! ١٣٩

نبذة عن المؤلف................................ ١٦١

الفهرست................................ ١٦٢